

الأرواحُ المتمرّدة

مكتبة صادر
بيروت

اهداءات ٢٠٠٢

أسرة د/ عبد الرحمن بدوي

جمعية د /عبد الرحمن بدوي للإبداع الثقافي

القاهرة

جبران خليل جبران

الأرواح المتمردة

مكتبة صادر
بيروت

الى الروح التي عانقت روحي . الى القلب الذي سكب اسراره في قلبي . الى اليد التي اوقدت شعلة عواطفي ارفع هذا الكتاب

جبران

مقدمة وانتقاد

يقول لنا المثل السائر ان لكل جديد طلاوة وهو قول ينطبق على كل شيء ماخلا الافكار في المسائل الاجتماعيـــة . فالناس لا يحبون استبدال عادة من عاداتهم بغيرها ولا يقبلون ملاحظـة على طريقة من طرق معيشتهم لكنهم في كل الاحيان يجدون أنفسهم سالكين رويداً رويداً في السبيل الذي ما أحبوه وبموجب الملاحظة التي لم يقبلوها

من ذلك، الحقائق العلمية التي كلما شاع أمر واحدة جديدة منها ينكرها الناس أولا ثم تراهم بعد حين أخـــذوا يعتقدون بهـا ويستعملونها ، ومن ذلك الازياء والاخلاق التي يظن كل منا أنـه تابع فيها آثار أسلافه بكل تدقيق وضبط ويفتخر بكونـه محافظا عليها في حـين اننا نعلم أن كل عصر من العصور مستقل عن سواه بعاداته واخلاقه

ما هي الافكار الجديدة ؟ كلما قام اديب في عصر وقال قولا مخالفاً للنظام الجاري يقوم بعض معاصريه وينكرون عليه كون ذلك القول جديداً . يقولون ان فلاناً سبقك الى هـذا الفكر ولم يستطع اثباته وتأييده ، أما عند كاتب هـــذه المقدمة فالشيء لا يكون قديماً اوجديداً بحد ذاته لأنه كائن مستقل عن الزمان والمكان . لكنه يكون كذلك بالنظر الى من يسمعه اويراه . ما ليس جديدا عندك ربما يكون جديدا عندي ، وما هو قديم عند

كلينا ربما يكون جديداً عند كثيرين غيرنا

والافكار الجديدة هي قسم من الاشياء التي تدخل خلايا الدماغ في رؤوس البشر عن طريق العين والاذن والفم والانف واليد. عن طريق الحواس الخمس . وهنـــاك تتجسم وتتصور ثم تخرج لابسة الثياب التي أعدتها لها نفس الانسان من طبيعتها ومواهبها. هـــذا يرسم لنا رسما وذاك يسمعنا نغماً وذلك يكتب لنا كتابة وغيره يسمعنا كلاماً وهلم جراً

وهي أيضاً من الاشياء التي تؤثر على ناظريها وسامعيها والشاعرين بها تأثيراً لا يمكن أن يرد أو يعارض فمتى سمعت بفكر جديد لا تطمعن بمقاتلته لان ذلك لا يقتله بل اتركه يسير في سبيله والظروف المؤلفة من مجموع آراء الهيئة الاجتماعية تتكفل بقتله ان كان مضراً وباحيائه وتعزيزه ان كان نافعاً

ما هو غرض الفلسفة الاجتماعية ؟ غرضها البحث عن الاسباب الاولية التي تؤول الى سعادة البشر أو تعاستهم . والفلاسفـــة يختلفون في استقصاء تلك الاسباب وتصويرها لكن اختلافهم يجيء دائماً بالنتائج الحسنة لان الاشياء تتميز باضدادها . هذا يشخص امراض الناس المعنوية ويعترض على عادات واخلاق لا ترضيه ويصف لها أدوية حسبما يقيس ويرى . وذاك يعارضه في الرأي ويصف أدوية من غير نوع . ولا تكون نتيجة هذا الاحتكاك والاختبار إلا نبذ الباطل والتمسك بالحقيقي

قارىء هذه السطور سمع بدون شك في حياته كثيراً من الشكاوى والتذمرات . وربما اشتكى وتذمر غير مرة من أمور مختلفة في هذه الدنيا لا يستنسب وجودها على الشكل الحاضر .

وجبران خليل جبران كاتب هذا الكتاب هو مثل قارىء هذه السطور انسان قد سمع ورأى الشكاوى والتذمرات وتأثر أيضاً في دوره واشتكى وتذمر . فخطرت بباله طرق عديدة لاصلاح ما يتمرمر الناس منه ووضع منذ مدة قريبة كتابا دعاه عرائس المروج ثم اضاف الآن اليه حلقة ثانية في كتاب الارواح المتمردة والقى علي مسئولية النظر في كتابه الثاني كما كلفني مثل هذا الحمل الثقيل في كتابه الاول على رغم ما اشعر واعترف به من العجزعن الاتيان بشيء مفيد من موضوع لا يكتفى بالنظر السطحي اليه بل يقتضي الدرس والتفكير مدة الليالي الطويلة التي نتج هذا الكتاب عن طول السهر فيها

جميع التعاليم الجديدة تموت ان كان مصدرها الخيال والوهم وتحيا اذا كانت منبثقة من سر خفي من اسرار القلب البشري . وكانت صدى العاطفة الوضيعة التي اوجدها الله في النفس من حينما خلق النفس وصورت للناس بكلام صريح تلك الحاسات التي يشعر بها ويعرف حقيقتها كل بشري لكنه يخاف من قريبه فلا يظهرها لقريبه

ومعلوم ان لكل عصر مسائل خاصة به تشغل افكار بنيه . ومسئلة المسائل التي تحوم الفكرة البشرية في ايامنا هذه حولها على غير معرفة منها تتألف من ثلاثة اشياء : البيت (العائلة) والكنيسة (الدين) والمحكمة (الشريعة) وسوف تبقى الفكرة البشرية حائمة حتى تدرك القصد والسر من هذه الاشياء الثلاثة فتبلغ بواسطة ادراكها هذا احضان السعادة والسعادة هي السبب الاول الذي نحيا ونموت من اجله

ثم اننا لا نقدر على بلوغ السعادة بواسطة ما يحيط بنا من الصور والاشباح والاصوات والعقائد بل بواسطة العاطفة النفسية الوضعية الكائنة في اعماق الفرد الواحد . فعلى عاطفة الفرد الواحد بنى المؤلف تعاليمه لان متاعب الحياة كلها في هذه الدنيا ناتجة عن اختلاف ذلك الفرد الواحد مع زوجته في البيت وكاهنه في الكنيسة وشريعته في المحكمة . وفوق ذلك لا ريب في ان استسلام الانسان الذي وجد حراً لافكار غيره وعقائد اسلافه قهراً وجبراً هو اكبر اسباب تعاسته لان الانسان يرضى ويتسلى عن كل ما ينتابه من يده لكنه قلما يرضى ويتسلى عما ينتابه من يد غيره

يقول لك الوالد «انت عقوق اذا كنت لا تفعل مثلي» ويقول لك الكاهن «انت كافر اذا كنت لا تصلي صلاتي» وتقول لك المحكمة «انت مجرم اذا كنت لا تتبع شرائعي» فتجيبهم «ولماذا؟» فيقولون لك «لان جميع الناس يفعلون ذلك» فتصرخ متوجعاً «ولكن جميع الناس تعساء وانا اريد ان اكون سعيداً» فيقولون لك «كن مثل جميع الناس لانك لست افضل منهم» وهكذا أيها القارىء يظل البشر عائشين واشباح جدودهم حية في اجسادهم كما سيريك جبران في كتابه هذا

ففي الرواية الاولى وهي السيدة وردة قد استمد افكاره من أوليات يعترف الناس بها لكنهم عن خوف من اشباح الجدود لا يقولون انهم سيتبعونها . اوليات هي تحرير العاطفة الوضعية في نفس الفرد الواحد من عبودية كل من وما يحيط به وانقاذ اميال القلب من آراء الناس غير المبنية على قياس صحيح وظاهر . والاقرار

لكل فرد بحق السعي المتواصل لما فيه سعادته من حيث لا يضر بالآخرين ، فالذي يقرأ السيدة وردة يظن ان جبران مثلا يخالف شرائـع الله ويحسن للناس حالة المرأة الخائنة التي طلقت زوجها لتقترن بغيره . يظن كذلك لانه لا يكون عارفا من معنى قولنا (المرأة الخائنة) ومن معنى كلمة (زوجها) الا ما قال له بعض الناس انها تعني

يقول لنا السيد المسيح في انجيله المقدس « ما ازوجه الله لا يفرقه الانسان» ونحن بكل احترام ننحني امام هذا القول المقدس ونسلم به تسليما مطلقاً لا يقبل الشك ولا الارتيـاب . لا نحاول تفريق ما ازوجه الله ولكن كم من زيجة في هذا العالم الفاسد نعيذ الله وعدله من ان يكون هو الذي ازوجها . كم من زيجة سعى بها الوالد الشرير والوالدة الظالمة وعقدها الكاهن المغشوش أو الكاهن الكاذب بين رجل وامرأة لا يعرف احد قلبيها القلب الآخر ولا تمزج احدى نفسيها بالنفس التي القيت غصباً عليها

لا يكفي ان يتلو الكاهن امام الشهود صلاة الاكليل المعروفة حتى يصير الرجل والامرأة زوجاً وزوجة ، انما هنالك في اعمق اعماق القلب صلاة يتلوها الله الذي هو المحبة والمحبة هو — وبدون ان تتلى لا يكون ما ازوجه الكاهن زواجاً ولا يجوز فقط بل يجب على الانسان تفريقه ، فالسيدة وردة كما سيرى القارىء الكريم لم يزوجها الله بالرجل الذي طلقته من بعد الزواج وقال الناس انها خائنة وكافرة ، انما ازوجها به الانسان والناس قد عميت بصائرهم حتى ما عادوا يفرقون بين الله والوالدين والكاهن وصاروا كلما بدت تعاسة عائلية في موضع يتمتمون لنا كالببغاء

قول الانجيل الذي لا يفهمونه صائحين «ما ازوجه الله لا يفرقه انسان»

اما حكاية صراخ القبور فهي كلمة صغيرة من ذلك الحديث الموجع الذي ترويه قراني المحاكم وزوايا السجون — هي خلاصة قصيرة لما يستره المحامون والقضاة من احكامهم تحت ستور الالفاظ الكثيرة والجمل الطويلة . والقارىء يتصور بامير هذه الحكاية إما بربر آغا في طرابلس وإما الجزار في عكا وإما ابراهيم باشا المصري في سوريا . ولا يتصور قاضياً من قضاة هذا العصر يقول ما يقوله الامير ولكن متى تأمل القارىء بنتيجة عدالة هذه الايام ومتى رأى كثيراً من القتلة وسفاكي الدماء يسرحون ويمرحون وكثيراً من البائسين المساكين يئنون في ظلمات السجون متى رأى المجرم الكبير حراً والمجرم الصغير مقيداً مسجوناً عند ذلك يرى ان جبران لم يصور في احكامه الا الحقيقة الحاضرة في ايامنا هذه انما بثوب غير ثوبها الربائي الشفاف من الالفاظ . هي حكاية حسنة لكنها في عرف الاكثرين مخيفة — مخيفة لان الحقيقة التي تتخذ لها من اطهار هذا العصر وظلمه ثوباً اسود تكون مخيفة ومزعجة للذين يعيشون في ظل الغباوة

اما حكاية مضجع العروس فتروي ان عروستها أكثر تمرداً من ابطال سائر الروايات لانها كسرت القيود الظالمة والضالة قبل ان تفرغ يد الجامعة من حبكها ، وفضلت الموت مع حبيبها على البقاء مع الرجل الذي اختاره الكذب والخبث بعلاً لها . ولقد قال لنا احد فضلاء الكهنة لما انتشرت هذه الرواية في جريدة المهاجر انها خالية من مقاربة الحقيقة وهذا كما يعلم ارباب هذا الفن من اوجب الصفات لامثال هذه الروايات ، فقلنا له ولماذا؟

فقال لانني لا اعتقد بان كاهناً مسيحياً يكلل عروساً قبل ان يثق منها برغبتها في اقتبال بركة الاكليل ، فقلنا له عفواً ايها الاب الفاضل ولكن نحن نعتقد... وليس كل ما تقوله كل عروس في مثل تلك الظروف يعني ضرورة ما يخالج اعماق قلبها . فهنالك العادات والملاحظات وما جرى مجراها

اما حكاية خليل الكافر فهي اشبه شيء بحكاية يوحنا المجنون في كتاب عرائس المروج ، والفرق بينهما هو ان يوحنا مات مغلوبا اما خليل فعاش منتصراً على اعدائه التعساء والمساكين . يوحنا شعر بالنير الثقيل الذي وضعه الرهبان والكهان على اعناق الفلاحين الفقراء فصرخ صوتاً عميقاً محزناً ومات . أما خليل فكان قادراً بحجته القوية على الوقوف امام الامراء والقضاة ولذلك عاش مغبوطاً في تلك القرية القريبة من غابة ارز لبنان

صعب على فتى ايامنا هذه ان يصدق كل ما يحكى عن استبداد بعض الاعيان والكهان في الشعوب التي سبقها الزمان في سيره فرتعت وهي في العصر العشرين في العصور الغابرة المظلمة . صعب على الواقف في النور ان يرى الاشباح المنسابة في اعماق الظلمة . وصعب على المستيقظ ان يروي حقيقة الاحلام المزعجة . ولكن بين فتيان هذه الايام شيوخ عاشوا في النصف الاول من القرن التاسع عشر . فمن يتهم جبران بالمبالغة والغلو عليه ان يسأل اولئك الفتيان الذين بيض الدهر مفارقهم فيسمع ما يذيب النفس ويدمي الفؤاد

وهكذا يرى القارىء اللبيب ان كتاب الارواح المتمردة الذي يجتمع فيه المجنون بالعاقل والمتمرد بالمطيع والمظلوم بالظالم

والساقطة بالفاضلة والعاشق بالخلي هو الجدار الثاني من بيت يبنيه جبران وكانت عرائس المروج جداره الاول وعلى جدران هذا البيت يحاول الكاتب الذي جمع ذكاء لبنان الى اجتهاد الولايات المتحدة وافكار الفيلسوف القاسية والمرجفة الى الفاظ المصور الرقيقة والموسيقية ان يرسم عواطف طبقات الناس المتفاوتة من المستعطي الى الامير ومن الكافر الى القديس ويصور حالات الازمنة والفصول من ظلام الليل الى ضوء النهار ومن نواح الخريف الى اغاني الربيع

امين الغريّب

وردة الهاني

١

ما أتعس الرجل الذي يحب صبية من بين الصبايا ويتخذها رفيقة لحياته، ويهرق على قدميها عرق جبينه ودم قلبه ، ويضع بين كفيها ثمار اتعابه وغلة اجتهاده ، ثم ينتبه فجأة فيجد قلبها الذي حاول ابتياعه بمجاهدة الايام وسهر الليالي قد اعطي مجاناً لرجل آخر ليتمتع بمكنوناته ويسعد بسرائر محبته

وما اتعس المرأة التي تستيقظ من غفلة الشبيبة فتجد ذاتها في منزل رجل يغمرها باموالِه وعطاياه ويسربلها بالتكريم والمؤانسة لكنه لا يقدر ان يلامس قلبها بشعلة الحب المحيية ولا يستطيع ان يشبع روحها من الخمرة السماوية التي يسكبها الله من عيني الرجل في قلب الامرأة .

***

عرفت رشيد بك نعمان منذ حداثتي . وهو رجل

لبناني الأصل بيروتي المولد والدار متحدر من اسرة قديمة غنية موصوفة بالمحافظة على ذكر الامجاد الغابرة ، فكان مولعاً بسرد الحوادث التي تبين نبالة آبائه وجدوده متبعاً بمعيشته عقائدهم وتقاليدهم منصرفاً الى تقليدهم في العادات والأزياء الغربية المرفرفة كأسراب الطيور في فضاء الشرق

وكان رشيد بك طيب القلب كريم الاخلاق لكنه كالكثيرين من سكان سوريا لا ينظر الى ما وراء الاشياء بل الى الظاهر منها . ولا يصغي الى نغمة نفسه بل يشغل عواطفه باستماع الاصوات التي يحدثها محيطه . ويلهي أمياله ببهرجة المرئيات التي تعمي البصيرة عن أسرار الحياة وتحول النفس عن ادراك خفايا الكيان الى ملاحظة المذات الوقتية . وكان من اولئك الرجال الذين يتسرعون باظهار محبتهم أو مقتهم للناس وللاشياء ثم يندمون على تسرعهم بعد فوات الوقت عندما تصير الندامة مجلبة للسخرية والاستهزاء بدلا من العفو والغفران

هذه هي الصفات والاخلاق التي جعلت رشيد بك نعمان يقترن بالسيدة وردة الهاني قبل ان تضم نفسها نفسه

في ظل المحبة الحقيقية التي تجعل الحياة الزوجية نعيماً.

* * *

غبت عن بيروت بضعة اعوام ولما رجعت اليها ذهبت لزيارة رشيد فوجدته ضعيف الجسد مكمد اللون تتمايل على سحنته المنقبضة أشباح الاحزان وتنبعث من عينيه الحزينتين نظرات موجعة تتكلم بالسكينة عن انسحاق قلبه وظلمة صدره . وبعيد ان بحثت في محيطه ولم اجد اسباب نحوله وانقباضه سألته قائلًا: ما اصابك ايها الرجل واين تلك البشاشة التي كانت تنبعث كالشعاع من وجهك ؟ واين ذهب ذاك السرور الذي كان ملاصقاً شبيبتك ؟ هل فصل الموت بينك وبين صديق عزيز ، ام سلبتك الليالي السوداء ما لا جمعته في الايام البيضاء ؟ قل لي بحق الصداقة ماهذه الكآبة المعانقة نفسك وهذا النحول المالك جسدك ؟

فنظر اليّ نظرة متأسف أرته الذكرى رسوم ايام جميلة ثم حجبتها . وبصوت تتموج في مقاطعه معاني اليأس والقنوط قال : اذا فقد المرء صديقاً عزيزاً والتفت حوله

يجد الاصدقاء الكثيرين فيتصبر ويتعزي ، واذا خسر الانسان مالا وفكر قليلًا رأى النشاط الذي اتي بالمال سيأتي بمثله فينسى ويسلو . ولكن اذا اضاع الرجل راحة قلبه فاين يجدها وبمَ يستعيض عنها ؟ يمد الموت يده ويصفعك بشدة فتتوجع ولكن لا يمر يوم وليلة حتى تشعر بملامس اصابع الحياة فتبتسم وتفرح . يجيئك الدهر على حين غفلة ويحدق بك بأعين مستديرة مخيفة ويقبض على عنقك بأظافر محددة ويطرحك بقساوة على التراب ويدوسك باقدامه الحديدية ويذهب ضاحكاً ثم لا يلبث ان يعود اليك نادماً مستغفراً فينتشلك باكفه الحريرية ويغني لك نشيد الامل فيطربك . مصائب كثيرة ومتاعب أليمة تأتيك مع خيالات الليل تضمحل امامك بمجيء الصباح وانت شاعر بعزيمتك متمسك بآمالك ولكن اذا كان نصيبك من الوجود طائراً تحبه وتطعمه حبات قلبك وتسقيه نور احداقك وتجعل ضلوعك له قفصاً ومهجتك عشاً . وبينما انت تنظر الى طائرك وتغمر ريشه بشعاع نفسك اذ به قد فر من بين يديك وطار حتى حلق السحاب

ثم هبط نحو قفص آخر وما من سبيل الى رجوعه فماذا تفعل اذ ذاك ايها الرجل ، قل لي ماذا تفعل واين تجد الصبر والسلوان وكيف تحيي الآمال والاماني ؟

لفظ رشيد بك الكلمات الاخيرة بصوت مخنوق متوجع ووقف على اقدامه مرتجفاً كقصبة في مهب الريح ومد يديه الى الامام كأنه يريد ان يقبض باصابعه المعوجة على شيء ليمزقه إربا إربا وقد تصاعد الدم الى وجهه وصبغ بشرته المتجعدة بلون قاتم وكبرت عيناه وجمدت اجفانه واحدق دقيقة كأنه رأى امامه عفريتاً قد انبثق من العدم وجاء ليميته ثم نظر اليّ وقد تغيرت ملامحه بسرعة وتحول الغضب والحنق في جسده المهزول الى التوجع والالم وقال باكياً : هي المرأة — المرأة التي انقذتها من عبودية الفقر وفتحت امامها خزائني وجعلتها محسودة بين النساء على الملابس الجميلة والحلى الثمينة والمركبات الفخمة والخيول المطهمة — المرأة التي احبها قلبي وسكب على اقدامها عواطفه ومالت اليها نفسي فغمرتها بالمواهب والعطايا — المرأة التي كنت لها صديقاً ودوداً ورفيقاً مخلصاً وزوجاً

أمينا قد خانتني وغادرتني وذهبت الى بيت رجل اخر لتعيش معه في ظلال الفقر وتشاركه بأكل الخبز المعجون بالعار وشرب الماء الممزوج بالذل والعيب — المرأة التي احببتها — الطائر الجميل الذي أطعمته حبات قلبي واسقيته نور احداقي وجعلت ضلوعي له قفصا ومهجتي عشاً قد فر من بين يدي وطار الى قفص آخر محبوك من قضبان العوسج ليأكل فيه الحسك والديدان ويشرب من جوانبه السم والعلقم — الملاك الطاهر الذي أسكنته فردوس محبتي وانعطافي قد انقلب شيطانا مخيفا وهبط الى الظلمة ليتعذب بآثامه ويعذبني بجريمته

وسكت الرجل وقد حجب وجهه بكفيه كأنه يريد ان يحمي نفسه من نفسه ثم تنهد قائلًا: هذا كل ما أقدر أن اقوله فلا تسألني أكثر من ذلك ولا تجعل لمصيبتي صوتا صارخا بل دعها مصيبة خرساء لعلها تنمو بالسكينة فتميتني وتريحني . فقمت من مكاني والدموع تراود أجفاني والشفقة تسحق قلبي . ثم ودعته ساكتاً لانني لم أجد في الكلام معنى يعزي قلبه الجريح ولا في الحكمة شعلة تنير نفسه المظلمة

٢

بعد ايام التقيت لاول مرة بالسيدة وردة الهاني في بيت حقير محاط بالزهور والاشجار . وكانت قد سمعت لفظ اسمي في منزل رشيد بك نعمان ، ذلك الرجل الذي داست قلبه وتركته ميتاً بين حوافر الحياة . ولما رأيت عينيها المنيرتين وسمعت نغمة صوتها الرخيمة قلت في ذاتي اتقدر هذه المرأة ان تكون شريرة ؟ وهل بامكان هذا الوجه الشفاف ان يستر نفساً شنيعة وقلباً مجرماً ؟ أهذه هي الزوجة الخائنة ؟ أهذه هي المرأة التي جنيت عليها مرات عديدة بتصويرها لفكري كثعبان مخيف مختبىء في جسم طائر بديع الشكل ؟ ولكني رجعت وهمست في سري قائلاً : اذن اي شيء جعل ذلك الرجل تعساً اذا لم يكن هذا الوجه الجميل ؟ او لم نسمع ونر ان المحاسن الظاهرة كانت سبباً لمصائب خفية هائلة واحزان عميقة اليمة ؟ او ليس القمر الذي يسكب في قرائح الشعراء

شعاعاً هو القمر الذي يهيج سكينة البحار بالمد والجزر

جلستُ وجلستْ السيدة وردة وكأنها قد سمعتني مفتكراً فلم ترد ان يطول الصراع بين حيرتي وظنوني ، فأسندت رأسها الجميل بيدها البيضاء وبصوت يحاكي نغمة الناي رقة قالت : لم التق بك قبل الآن ايها الرجل ولكني سمعت صدى أفكارك واحلامك من افواه الناس فعرفتك شفوقاً على المرأة المظلومة ، رؤوفاً بضعفها ، خبيراً بعواطفها وميولها . من اجل ذلك اريد ان ابسط لك قلبي وافتح امامك صدري لترى مخبآته وتخبر الناس ان شئت بان وردة الهاني لم تكن قط امرأة خائنة شريرة . . . كنت في الثامنة عشرة من عمري عندما قادني القدر الى رشيد بك نعمان وكان هو اذ ذاك قريباً من الاربعين فشغف بي ومال اليّ ميلاً شريفاً كما يقول الناس ، ثم جعلني زوجة له وسيدة في منزله الفخم بين خدامه الكثيرين فألبسني الحرير وزين رأسي وعنقي ومعصمي بالجواهر والحجارة الكريمة وكان يعرضني كتحفة غريبة في منازل أصدقائه ومعارفه ويبتسم ابتسامة الفوز والانتصار عندما

يرى عيون أترابه ناظرة اليّ باعجاب واستحسان ويرفع رأسه تيهاً وافتخاراً أذ يسمع نساء أصحابه يتكلمن عني بالاطراء والمودة. لكنه لم يكن يسمع قول السائل: أهذه زوجة رشيد بك أم هي صبية تبناها وقول الآخر لو تزوج رشيد بك في زمن الشباب لكان بكره أكبر سنا من وردة الهاني .

جرى كل ذلك قبل ان تستيقظ حياتي من سبات الحداثة العميق وقبل ان توقد الالهة شعلة المحبة في قلبي وقبل ان تنبت بذور العواطف والاميال في صدري . نعم جرى كل ذلك عندما كنت أحسب منتهى السعادة في ثوب جميل يزين قامتي ومركبة فخمة تجرني ورياش ثمينة تحيط بي ولكن عندما أستيقظت — عندما استيقظت وفتح النور أجفاني وشعرت بألسنة النار المقدسة تلسع أضلعي وتحرقها — وبالمجاعة الروحية تقبض على نفسي فتوجعها — عندما استيقظت ورأيت اجنحتي تتحرك يميناً وشمالا وتريد النهوض بي الى سماء المحبة ثم ترتجف وترتخي عجزاً بجانب سلاسل الشريعة التي قيدت جسدي قبل ان

أعرف كنه تلك القيود ومفاد تلك الشريعة ـ عند ما
استيقظت وشعرت بهذه الاشياء عرفت بان سعادة المرأة
ليست بمجد الرجل وسؤدده ، ولا بكرمه وحلمه ، بل
بالحب الذي يضم روحها الى روحه ويسكب عواطفها في
كبده ويجعلها ويجعله عضواً واحداً من جسم الحياة و كلمة
واحدة على شفتي الله . عندما بانت هذه الحقيقة الجارحة
لبصيرتي رأيتني في منزل رشيد نعمان مثل لص سارق
يأكل خبزه ثم يستتر بظلام الليل . وعرفت ان كل يوم
اصرفه بقربه هو كذبة هائلة يخطها الرياء باحرف نارية
ظاهرة على جبهتي امام الارض والسماء ، لانني لم اقدر
ان اهبه محبة قلبي لقاء كرمه ولا ان امنحه انعطاف نفسي
ثمنا لاخلاصه وصلاحه . وقد حاولت وباطلا حاولت ان
اتعلم محبته فلم اتعلم . لان المحبة هي قوة تبتدع قلوبنا .
وقلوبنا لا تقدر ان تبتدعها . ثم صليت وتضرعت وباطلا
تضرعت وصليت في سكينة الليالي امام السماء لتولد
في اعماقي عاطفة روحية تقربني من الرجل الذي اختارته
رفيقاً لي فلم تفعل السماء لان المحبة تهبط على ارواحنا بايعاز

من الله لا بطلب من البشر وهكذا بقيت عامين كاملين في منزل ذلك الرجل أحسد عصافير الحقل على حريتها . وبنات جنسي يحسدنني على سجني . وكالثكلى الفاقدة وحيدها كنت اندب قلبي الذي ولد بالمعرفة واعتل بالشريعة وكان يموت في كل يوم جوعا وعطشا . ففي يوم من تلك الايام السوداء نظرت من وراء الظلمة فرأيت شعاعا لطيفا ينسكب من عيني فتى يسير وحده على سبل الحياة ، ويعيش منفرداً بين أوراقه وكتبه في هذا البيت الحقير . فأغمضت عينيّ كيلا أرى ذلك الشّعاع وقلت لنفسي نصيبك يانفس ظلمة القبر فلا تطمعي بالنور ثم أصغيت فسمعت نغمة علوية تهز جوارحي بعذوبتها وتمتلك كليتي بطهرها فاغلقت أذني وقلت : نصيبك يا نفس صراخ الهاوية فلا تطمعي بالاغاني ... أغمضت اجفاني كيلا ارى واغلقت اذني كيلا اسمع . لكن عينيّ ظلتا تريان ذلك الشعاع وهما منطبقتان واذنيّ تسمعان تلك النغمة وهما مغلقتان فخفت لاول وهلة خوف فقير وجد جوهرة بقرب قصر الامير فلم يجسر ان يلتقطها لخوفه ولم يقدر ان يتركها لفاقته .

وبكيت بكاء ظامىء رأى الينبوع العذب محاطاً بكواسر الغاب فارتمى على الارض مترقباً جازعاً .

وسكتت السيدة وردة دقيقة وقد اغمضت عينيها الكبيرتين كأن ذلك الماضي قد انتصب امامها فلم تجسر ان تحدق بي وجهاً لوجه . ثم عادت وقالت : هؤلاء البشر الذين يجيئون من الابدية ويعودون اليها قبل ان يذوقوا طعم الحياة الحقيقية لا يمكنهم ان يدركوا كنه اوجاع المرأة عندما تقف نفسها بين رجل تحبه بارادة السماء ، ورجل تلتصق به بشريعة الارض . هي مأساة أليمة مكتوبة بدماء الانثى ودموعها يقرأها الرجل ضاحكا لانه لا يفهمها وان فهمها انقلب ضحكه فجوراً وقساوة وانزل على رأس المرأة من غضبه ناراً وكبريتاً وملأ اذنيها لعناً وتجديفا . هي رواية موجعة تمثلها الليالي السوداء بين ضلوع كل امرأة تجد جسدها مقيداً بمضجع رجل عرفته زوجاً قبل ان تعرف ما هي الزيجة . وترى روحها مرفرفة حول آخر تحبه بكل ما في الروح من المحبة وبكل ما في المحبة من الطهر والجمال . هو نزاع مخيف قد ابتدأ منذ ظهور

الضعف في المرأة والقوة في الرجل ولا ينتهي حتى تنقضي ايام عبودية الضعف للقوة . هي حرب هائلة بين شرائع الناس الفاسدة وعواطف القلب المقدسة قد طرحت بالامس في ساحتها وكدت اموت جزعاً واذوب دموعاً ، لكنني وقفت ونزعت عني جبانة بنات جنسي وحللت جناحيّ من رُبط الضعف والاستسلام وطرت في فضاء الحب والحرية وانا سعيدة الآن بقرب الرجل الذي خرج وخرجت شعلة واحدة من يد الله قبيل ابتداء الدهور ، ولا توجد قوة في هذا العالم تستطيع ان تسلبني سعادتي لانها منبثقة من عناق روحين يضمهما التفاهم ويظللهما الحب .

ونظرت اليّ السيدة وردة نظرة معنوية كأنها تريد ان تخترق صدري بعينيها لترى تأثير كلامها في عواطفي وتسمع صدى صوتها من بين ضلوعي . لكنني بقيت صامتاً كيلا اوقفها عن الكلام . فقالت وقد قارن صوتها بين مرارة الذكرى وحلاوة الخلاص والحرية : يقول لك الناس ان وردة الهاني امرأة خائنة جحودة قد اتبعت شهوة قلبها وهجرت الرجل الذي رفعها اليه وجعلها سيدة في منزله .

ويقولون لك هي زانية عاهرة قد اتلفت بمقابضها القذرة اكليل الزواج المقدس الذي ضفرته الديانة واتخذت عوضاً عنه اكليلاً وسخاً محبوكاً من اشواك الجحيم . والقت عن جسدها ثوب الفضيلة وارتدت بلباس الاثم والعار ويقولون لك اكثر من ذلك لان اشباح جدودهم ما زالت حية في اجسادهم . فهم مثل كهوف الاودية الخالية يرجّعون صدى أصوات ولا يفهمون معناها . هم لا يعرفون شريعة الله في مخلوقاته ولا يفقهون مفاد الدين الحقيقي ولا يعلمون متى يكون الانسان خاطئاً او باراً ، بل ينظرون بأعينهم الضئيلة الى ظواهر الاعمال ولا يرون اسرارها فيقضون بالجهل ويدينون بالعماوة ويستوي امامهم المجرم والبريء والصالح والشرير . فويل لمن يقضي وويل لمن يدين ... انا كنت زانية وخائنة في منزل رشيد نعمان لانه جعلني رفيقة مضجعه بحكم العادات والتقاليد قبل ان تصيرني السماء قرينة له بشريعة الروح والعواطف . وكنت دنسة ودنيئة امام نفسي وامام الله عندما كنت اشبع جوفي من خيراته ليشبع امياله من جسدي . اما الآن فصرت طاهرة نقية لان ناموس الحب

قد حررني . وصرت شريفة وامينة لانني ابطلت بيع جسدي بالخبز واياءي بالملابس . نعم كنت زانية ومجرمة عندما كان الناس يحسبونني زوجة فاضلة واليوم صرت طاهرة وشريفة وهم يحسبونني عاهرة دنسة لانهم يحكمون على النفوس من مآتي الاجساد ويقيسون الروح بمقاييس المادة .

والتفتت السيدة وردة نحو النافذة وأشارت بيمينها نحو المدينة ورفعت صوتها عن ذي قبل وقالت بلهجة الاحتقار والاشمئزاز كأنها رأت بين الازقة وعلى السطوح وفي الاروقة اشباح المفاسد وخيالات الانحطاط : انظر الى هذه المنازل الجميلة والقصور الفخمة العالية حيث يسكن الاغنياء والاقوياء من البشر . فبين جدرانها المكسوة بالحرير المنسوج تقطن الخيانة بجانب الرياء ، وتحت سقوفها المطلية بالذهب المذوب يقيم الكذب بقرب التصنع . انظر وتأمل جيداً بهذه البنايات التي تمثل لك المجد والسؤدد والسعادة فهي ليست سوى مغائر يختبىء فيها الذل والشقاء والتعاسة . هي قبور مكلسة يتوارى فيها مكر المرأة

الضعيفة وراء كحل العيون واحمرار الشفاه وتحتجب في زواياها انانية الرجل وحيوانيته بلمعان الفضة والذهب. هي قصور تتشامخ جدرانها تيهاً وافتخاراً نحو العلاء ولو كانت تشعر بانفاس المكاره والغش السائلةعليها لتشققت وتبعثرت وهبطت الى الحضيض . هي منازل ينظر اليها القروي الفقير بأعين دامعة ولو علم بانه لا يوجد في قلوب سكانها ذرة من تلك المحبة العذبة التي تملأ صدر رفيقته لابتسم مستهزئاً وعاد الى حقله مشفقاً

وامسكت السيدة وردة بيدي وقادتني الى جانب النافذة التي كانت تنظر منها نحو تلك المنازل والقصور وقالت : تعال فأريك خفايا هؤلاء الناس الذين لم ارض انا اكون مثلهم. انظر الى ذلك القصر ذي الاعمدة الرخامية والجوانح النحاسية والنوافذ البلورية ففيه يسكن رجل غني ورث ماله عن والده البخيل واكتسب اخلاقه من جوانب الازقة المفعمة بالمفاسد . وقد تزوج منذ عامين بامرأة لم يعرف عنها شيئاً سوى ان لوالدها شرفاً موروثاً ومنزلة رفيعة بين نبلاء البلاد . ولم ينقض شهر العسل حتى

ملها متضجراً وعاد الى مسامرة بنات الهوى وتركها في
هذا القصر مثلما يترك السكير جرة خمر فارغة ، فبكت
وتوجعت لاول وهلة ثم تصبرت وسلت سلو من عرف
خطأه وعلمت بان دموعها هي اثمن من ان تهرق على خسارة
رجل مثل زوجها . وهي الآن مشغولة عن كل شيء
بعشق فتى جميل الوجه حلو الحديث تسكب في راحتيه
عواطف قلبها وتملأ جيوبه من ذهب بعلها الذي يغض
الطرف عنها لانها تغض الطرف عنه . . . ثم انظر الى ذلك
البيت المحاط بالحديقة الغناء فهو مسكن رجل ينتمي الى
اسرة شريفة حكمت البلاد مدة طويلة وقد انخفض مقامها
اليوم بتوزيع ثروتها وانصراف ابنائها الى التواني والكسل .
وقد اقترن هذا الرجل منذ اعوام بفتاة قبيحة الصورة
لكنها غنية جداً وبعد استيلائه على ثروتها الطائلة نسي
وجودها واتخذ له خليلة حسناء وغادرها تنهش اصابعها
ندماً وتذوب شوقاً وحنيناً . وهي الآن تصرف الساعات
بتجعيد شعرها وتكحيل عينيها وتلوين وجهها بالمساحيق
والعقاقير وتزيين قامتها بالاطالس والحرير لعلها تحظى بنظرة

من احد زائريها لكنها لا تحصل الا على نظرات شبحها في المرآة ... ثم انظر الى ذلك المنزل الكبير المزين بالنقوش والتماثيل فهو منزل امرأة جميلة الوجه خبيثة النفس قد مات زوجها الاول فاستأثرت بأمواله واملاكه ثم اختارت من بين الرجال رجلًا ضعيف الجسم والارادة واتخذته بعلًا لتحتمي باسمه من ألسنة الناس وتدافع بوجوده عن منكراتها . وهي الان بين مريديها كالنحلة تمتص من الزهور ما كان حلوا ولذيذاً . وانظر الى تلك الدار ذات الاروقة الوسيعة والقناطر البديعة فهي مسكن رجل مادي الاميال كثير المشاغل والمطامع وله زوجة كل ما في جسدها جميل وحسن وكل ما في روحها حلو ولطيف وقد تمازجت في شخصها عناصر النفس بدقائق الجسد مثلما تتآلف في الشعر نغمة الوزن برقة المعاني فهي قد كونت لتعيش بالحب وتموت به . لكنها كالكثيرات من بنات جنسها قد جنى عليها والدها قبل بلوغها الثامنة عشرة من عمرها ووضع عنقها تحت نير الزيجة الفاسدة وهي الان سقيمة الجسم تذوب كالشمع بحرارة عواطفها المقيدة .

وتضمحل على مهل كالرائحة الزكية أمام العاصفة . وتفنى حباً بشيء جميل تشعر به ولا تراه وتصبو حنيناً الى معانقة الموت لتتخلص من حياتها الجامدة وتتحرر من عبودية رجل يصرف الايام بجمع الدنانير والليالي بعدِّها ويصر اسنانه مجدفا على الساعة التي تزوج فيها بامرأة عاقر لا تلد له ابناً ليحيي اسمه ويرث ماله وخيراته ... ثم أنظر الى ذلك البيت المنفرد بين البساتين فهو مسكن شاعر خيالي سامي الافكار روحي المذهب له زوجة غليظة العقل خشنة الطباع تسخر باشعاره لانها لا تفهمها وتستهزىء باعماله لانها غريبة وهو الان مشغول عنها بمحبة امرأة أخرى متزوجة تتوقد ذكاء وتسيل رقة وتولد في قلبه النور بانعطافها وتوحي اليه الاقوال الخالدة بابتساماتها ونظراتها

وسكتت السيدة وردة هنيهة وقد جلست على مقعد بجانب النافذة كأن نفسها قد تعبت من التجول في مخادع تلك المنازل الخفية ثم عادت تقول بهدوء : هذه هي القصور التي لم أرض ان اكون من سكانها . هذه هي القبور التي لم أرد ان أدفن حية طي لحودها . هؤلاء الناس الذين

تخلصت من عوائدهم وخلعت عني نير جامعتهم هؤلاء هم المتزوجون الذين يقترنون بالاجساد ويتنافرون بالروح ولا شفيع بهم امام الله سوى جهلهم ناموس الله . انا لا أدينهم الان بل اشفق عليهم ولا اكرههم بل اكره استسلامهم عفواً الى الرياء والكذب والخباثة . ولم اكشف امامك خفايا قلوبهم واسرار معيشتهم لانني لا احب الاغتياب والنميمة بل فعلت ذلك لأريك حقيقة قوم كنت بالامس مثلهم فنجوت وابين لك معيشة بشر يقولون عني كل كلمة شريرة لانني خسرت صداقتهم لاربح نفسي وخرجت عن سبل خداعهم المظلمة وحولت عيني نحو النور حيث الاخلاص والحق والعدل . وقد نفوني الان من جامعتهم وانا راضية لان البشر لا ينفون الا من تمردت روحه الكبيرة على الظلم والجور . ومن لا يؤثر النفي على الاستعباد لا يكون حراً بما في الحرية من الحق والواجب . انا كنت بالامس مثل مائدة شهية وكان رشيد بك يقترب مني عندما يشعر بحاجة الى الطعام اما نفسانا فتظلان بعيدتين كخادمين ذليلين . ولما رأيت المعرفة كرهت

الاستخدام وقد حاولت الخضوع لما يدعونه نصيباً فلم اقدر لان روحي ابت ان اصرف العمر كله راكعة امام صنم مخيف اقامته الاجيال المظلمة ودعته الشريعة. فكسرت قيودي لكنني لم ألقها عني حتى سمعت الحب منادياً ورأيت النفس متأهبة للمسير . فخرجت من منزل رشيد نعمان خروج الاسير من سجنه تاركة خلفي الحلي والحلل والخدم والمركبات وجئت بيت حبيبي الخالي من الرياش المملوء من الروح وانا عالمة بانني لم افعل غير الحق والواجب لان مشيئة السماء ليست بان اقطع جناحي بيدي وارتمي على الرماد حاجبة رأسي بساعدي ساكبة حشاشتي من اجفاني قائلة هذا نصيبي من الحياة . ان السماء لا تريد ان اصرف العمر صارخة متوجعة في الليالي قائلة متى يجيء الفجر وعندما يجيء الفجر اقول متى ينقضي هذا النهار . ان السماء لا تريد ان يكون الانسان تعساً لانها وضعت في اعماقه الميل الى السعادة لانه بسعادة الانسان يتمجد الله... هذه هي حكايتي ايها الرجل وهذا احتجاجي امام السماء والارض وانا اردده واترنم به والناس يغلقون آذانهم

ولا يسمعون لانهم يخشون ثورة ارواحهم ويخافون ان تتزعزع اسس جامعتهم وتهبط على رؤوسهم . هذه هي العقبة التي سرت عليها حتى بلغت قمة سعادتي ولو جاء الموت واختطفني الان لوقفت روحي امام العرش الاعلى بـلا خوف ولا وجل بل بفرح وامل وانجلت لفائف ضميري امام الديان الاعظم وبانت نقية كالثلج لانني لم أفعل غير مشيئة النفس التي فصلها الله عن ذاته ولم اتبع غير نداء القلب وصدى أغاني الملائكة . هذه هي روايتي التي يحسبها سكان بيروت لعنة في فم الحياة وعلة في جسم الهيئة الاجتماعية . ولكنهم سوف يندمون عندما تنبه الايام محبة المحبة في قلوبهم المظلمة مثلما تستنبت الشمس الزهور من بطن الارض المملوء من بقايا الاموات فيقف اذ ذاك عابر الطريق بجانب قبري ويلقي عليه السلام قائلا: هينا رقدت وردة الهاني التي حررت عواطفها من عبودية الشرائع البشرية الفاسدة لتحيا بناموس المحبة الشريفة. وحولت وجهها نحو الشمس كيلا ترى ظل جسدها بين الجماجم والاشواك

ولم تنته السيدة وردة من كلامها حتى فتح الباب ودخل علينا فتى نحيل القوام جميل الوجه تنسكب من عينيه اشعة سحرية وتسيل على شفتيه ابتسامة لطيفة . فوقفت السيدة وردة وأمسكت بذراعه بانعطاف كلي وقدمته الي بعد ان لفظت اسمي مذيلاً بكلمة لطيفة واسمه مشفوعاً بنظرة معنوية فعرفت بانه ذلك الشاب الذي أنكرت العالم وخالفت الشرائع والتقاليد من اجله. ثم جلسنا جميعاً صامتين لانشغال كل منا بمعرفة رأي الآخر فيه حتى اذا مرت دقيقة مملوءة من السكينة التي تستميل النفوس الى الملإ الاعلى نظرت اليهما وقد جلسا أحدهما بجانب الآخر فرأيت ما لم أره قط وعرفت بلحظة معنى حكاية السيدة وردة وادركت سر احتجاجها على الهيئة الاجتماعية التي تضطهد الافراد المتمردين على شرائعها قبل ان تستفحص دواعي تمردهم. رأيت روحاً واحدة سماوية متمثلة امامي بجسدين يجملهما الشباب ويسربلهما الاتحاد وقد وقف بينهما اله الحب باسطاً جناحيه ليحميهما من لوم الناس وتعنيفهم. وجدت التفاهم الكلي منبعثاً من وجهين شفافين ينيرهما الاخلاص ويحيط

بها الطهر : وجدت لأول مرة في حياتي طيف السعادة منتصباً بين رجل وامرأة يرذلها الدين وتنبذهما الشريعة .

وبعد هنيهة وقفت وودعتها مظهراً بغير الكلام تأثيرات نفسي وخرجت من ذلك المنزل الحقير الذي جعلته العواطف هيكلاً للحب والوفاق وسرت بين تلك القصور والمنازل التي اظهرت لي خفاياها السيدة وردة مفكراً بحديثها وبكل ما ينطوي تحته من المبادىء والنتائج لكنني لم ابلغ اطراف ذلك الحي حتى تذكرت رشيد بك نعمان فتمثلت لبصيرتي لوعة قنوطه وشقائه فقلت في ذاتي : هو تعس مظلوم ولكن هل تسمعه السماء اذا وقف امامها متظلماً شاكياً وردة الهاني ؟ هل جنت عليه تلك المرأة عندما تركته واتبعت حرية نفسها أم هو الذي جنى عليها عندما اخضع جسدها بالزواج قبل ان يستميل روحها بالمحبة ؟ فمن هو الظالم من الاثنين ومن هو المظلوم ؟ ومن هو المجرم ومن هو البريء يا ترى ؟ ثم عدت قائلاً لذاتي مستفتياً اخبار الايام مستقصياً حوادثها كثيراً ما اباح

الغرور للنساء ان يتركن رجالهن الفقراء ويتعلقن بالرجال الاغنياء لان شغف المرأة ببهرجة الملابس ونعومة العيش يعمي بصيرتها ويقودها الى العار والانحطاط . فهل كانت وردة الهاني مغرورة وطامعة عندما خرجت من قصر رجل غني مفعم بالحلى والحلل والرياش والخدم وذهبت الى كوخ رجل فقير لا يوجد فيه سوى صف من الكتب القديمة ؟ وكثيراً ما يميت الجهل شرف المرأة ويحيي شهواتها فتترك بعلها مللاً وتضجراً وتطلب ملذات جسدها بقرب رجل آخر اكثر منها انحطاطاً وأقل شرفاً . فهل كانت وردة الهاني جاهلة راغبة بالملذات الجسدية عندما اعلنت استقلالها على رؤوس الاشهاد وانضمت الى فتى روحي الاميال . وقد كان بإمكانها ان تشبع حواسها سراً في منزل زوجها من هيام الفتيان الذين يستميتون ليكونوا عبيد جمالها وشهداء غرامها ؟ وردة الهاني كانت امرأة تعسة فطلبت السعادة فوجدتها وعانقتها وهذه هي الحقيقة التي تحتقرها الجامعة الانسانية وتنفيها الشريعة

همست تلك الكلمات في مسامع الاثير ثم قلت

مستدركاً ولكن أيسوغ للمرأة ان تشتري سعادتها بتعاسة بعلها ؟ فأجابتني نفسي قائلة وهل يجوز للرجل ان يستعبد عواطف زوجته ليبقى سعيداً ؟

***

وظللت سائراً وصوت السيدة وردة يتموج في مسامعي حتى بلغت أطراف المدينة والشمس قد مالت الى الغروب وابتدأت الحقول والبساتين تتشح بنقاب السكينة والراحة والطيور تنشد صلاة المساء فوقفت متأملاً ثم تنهدت قائلاً امام عرش الحرية تفرح هذه الاشجار بمداعبة النسيم وامام هيبتها تبتهج بشعاع الشمس والقمر . على مسامع الحرية تتناجى هذه العصافير وحول اذيالها ترفرف بقرب السواقي في فضاء الحرية تسكب هذه الزهور عطر أنفاسها وأمام عينيها تبتسم لمجيء الصباح . كل ما في الارض يحيا بناموس طبيعته ومن طبيعة ناموسه يستمد مجد الحرية وافراحها . أما البشر فمحرومون من هـذه النعمة لانهم وضعوا الارواحهم الالهية شريعة عالمية محدودة . وسنوا

لاجسادهم ونفوسهم قانوناً واحداً قاسياً . واقاموا لميولهم
وعواطفهم سجناً ضيقاً مخيفاً . وحفروا لقلوبهم وعقولهم
قبراً عميقاً مظلما . فاذا ما قام واحد من بينهم وانفرد عن
جامعتهم وشرائعهم قالوا هذا متمرد شرير خليق بالنفي ،
وساقط دنس يستحق الموت ... ولكن هل يظل الانسان
عبداً لشرائعه الفاسدة الى انقضاء الدهر ام تحرره الايام
ليحيا بالروح وللروح ؟ أيبقى الانسان محدقاً بالتراب
ام يحول عينيه نحو الشمس كيلا يرى ظل جسده بين
الاشواك والجماجم ؟

صراخ القبور

١

تربع الامير على منصة القضاء فجلس عقلاء بلاده عن يمينه وشماله وعلى وجوههم المتجعدة تنعكس اوجه الكتب والاسفار . وانتصب الجند حوله ممتشقين السيوف رافعين الرماح . ووقف الناس امامه بين متفرج اتى به حب الاستطلاع ومترقب ينتظر الحكم في جريمة قريبه وجميعهم قد احنوا رقابهم وخشعوا ببصائرهم وامسكوا انفاسهم كأن في عيني الامير قوة توعز الخوف وتوحي الرعبة الى نفوسهم وقلوبهم . حتى اذا ما اكتمل المجلس وازفت ساعة الدينونة رفع الامير يده وصرخ قائلا : احضروا المجرمين امامي واحداً واحداً واخبروني بذنوبهم ومعاصيهم . ففتح باب السجن وبانت جدرانه المظلمة مثلما تظهر حنجرة الوحش الكاسر عندما يفتح فكيه متثائباً . وتصاعدت من جوانبه قلقلة القيود والسلاسل متآلفة مع انين الحبساء ونحيبهم . فحول الحاضرون اعينهم وتطاولت اعناقهم كأنهم

يريدون مسابقة الشريعة بنواظرهم ليروا فريسة الموت خارجة من اعماق ذلك القبر

وبعد هنيهة خرج من السجن جنديان يقودان فتى مكتوف الساعدين يتكلم وجهه العابس وملامحه المنقبضة عن عزة في النفس وقوة في القلب . واوقفاه وسط المحكمة وتراجعا قليلًا الى الوراء . فاحدق به الامير دقيقة ثم سأل قائلًا : ما جريمة هذا الرجل المنتصب امامنا برأس مرفوع كأنه في موقف الفخر لا في قبضة الدينونة؟

فاجابه رجل من اعوانه قائلًا :

هو قاتل شرير قد اعترض بالامس قائداً من قواد الامير وجندله صريعاً اذ كان ذاهباً بمهمة بين القرى وقد قبض عليه والسيف المغمد بدماء القتيل ما زال مشهوراً في يده

فتحرك الامير غضباً فوق عرشه وتطايرت سهام الحنق من عينيه وصرخ بأعلى صوته قائلًا : ارجعوه الى الظلمة واثقلوا جسده بالقيود وعند ما يجيء فجر الغد اضربوا عنقه بحد سيفه ثم اطرحوا جثته في البرية لتجردها العقبان

والضواري وتحمل الرياح رائحة نتانتها الى انوف اهله ومحبيه .

ارجعوا الشاب الى السجن والناس يتبعونه بنظرات الاسف والتنهيدات العميقة لانه كان فتى في ربيع العمر حسن المظاهر قوي البنية .

وخرج الجنديان ثانية من السجن يقودان صبية جميلة الوجه ضعيفة الجسد قد وشح معانيها اصفرار اليأس والقنوط وغمرت عينيها العبرات وألوت عنقها الندامة والحسرة

فنظر اليها الامير قائلا: وما فعلت هذه الامرأة المهزولة الواقفة أمامنا وقوف الظل بجانب الحقيقة ؟

فأجابه احد الجنود قائلًا : هي امرأة عاهرة قد فاجأها بعلها ليلًا فوجدها بين ذراعي خليلها فاسلمها للشرطة بعد ان فر أليفها هاربًا

فأحدق الامير بها وهي مطرقة خجلا ثم قال بشدة وقساوة : ارجعوها الى الظلمة ومددوها على فراش من الشوك لعلها تذكر المضجع الذي دنسته بعيبها واسقوها

الخل ممزوجاً بنقيع العلقم عساها تذكر طعم القبل المحرمة وعندمجيء الفجرجروها عارية الى خارج المدينة وارجموها بالحجارة واتركوا جسدها هناك لكي تتنعم بلحمانه الذئاب وتنخر عظامه الديدان والحشرات

توارت الصبية بظلمة السجن والحاضرون ينظرون اليها بين معجب بعدل الامير ومتأسف على جمال وجهها الكئيب ورقة نظراتها المحزنة

وظهر الجنديان ثالثة يقودان كهلًا ضعيفاً يسحب ركبتيه المرتعشتين كأنهما خرقتان من أطراف ثوبه البالي ويلتفت جزعاً الى كل ناحية ومن نظراته الموجعة تنبعث خيالات البؤس والفقر والتعاسة

فالتفت الامير نحوه وقال بلهجة الاشمئزاز : وماذنب هذا القذر الواقف كالميت بين الاحياء ؟

فأجابه احد الجنود قائلًا : هو لص سارق قد دخل الدير ليلًا فقبض عليه الرهبان الاتقياء ووجدوا طي اثوابه آنية مذابحهم المقدسة

فنظر اليه الامير نظرة النسر الجائع الى عصفور

مكسور الجناحين وصرخ قائلًا : انزلوه الى اعماق الظلمة وكبلوه بالحديد وعند مجيء الفجر جروه الى شجرة عالية واشنقوه بحبل من الكتان واتركوا جسده معلقاً بين الارض والسماء فتنثر العناصر اصابعه الاثيمة نثراً وتذري الرياح اعضاءه نتفا

ارجعوا اللص الى السجن والناس يهمسون بعضهم في آذان بعض قائلين : كيف تجرأ هذا الضعيف الكافر على اختلاس آنية الدير المقدسة

ونزل الامير عن كرسي القضاء فاتبعه العقلاء والمتشرعون وسار الجند خلفه وامامه وتبدد شمل المتفرجين وخلا ذلك المكان الا من عويل المسجونين وزفرات القانطين المتمايلة كالخيالات على الجدران

جرى كل ذلك وانا واقف هناك وقوف المرآة امام الاشباح السائرة مفكراً بالشرائع التي وضعها البشر للبشر ، متأملًا بما يحسبه الناس عدلا ، متعمقاً باسرار الحياة باحثاً عن معنى الكيان . حتى اذا ما تضعضعت افكاري مثلما تتوارى خطوط الشفق بالضباب خرجت

من ذالك المكان قائلاً لذاتي : الاعشاب تمتص عناصر التراب ٠ والخروف يلتهم الاعشاب ٠ والذئب يفترس الخروف ٠ ووحيد القرن يقتل الذئب ٠ والاسد يصيد وحيد القرن ٠ والموت يفني الاسد ٠ فهل توجد قوة تتغلب على الموت فتجعل سلسلة هذه المظالم عدلا سرمدياً ا ٠٠٠ اتوجد قوة تحول جميع هذه الاسباب الكريهة الى نتائج جميلة ؟ اتوجد قوة تقبض بكفها على جميع عناصر الحياة وتضمها الى ذاتها مبتسمة مثلما يرجع البحر جميع السواقي الى اعماقه مترنماً ؟ اتوجد قوة توقف القاتل والمقتول والزانية وخليلها والسارق والمسروق منه امام محكمة اسمى واعلى من محكمة الامير ؟

٢

وفي اليوم الثاني خرجت من المدينة وسرت بين الحقول حيث تبيح السكينة للنفس ما تسره النفس ، ويميت طهر الفضاء جراثيم اليأس والقنوط التي تولدها الشوارع الضيقة والمنازل المظلمة . ولما بلغت طرف الوادي التفت فاذا بأجواق كثيرة من العقبان والغربان والنسور تتطاير تارة وتهبط طوراً وقد ملأت الفضاء بنعابها وصفيرها وحفيف أجنحتها . فتقدمت قليلا مستطلعاً فرأيت أمامي جثة رجل معلقة على شجرة عالية ، وجثة امرأة عارية مطروحة بين الحجارة التي رجمت بها ، وجثة فتى غارقة بالدماء المجبولة بالتراب وقد فصل رأسها عنها

وقفت وهول المشهد يغشي بصيرتي بنقاب كثيف مظلم ونظرت فلم أر سوى خيال الموت المريع منتصباً بين الجثث الملطخة بالدماء . وأصغيت فلم اسمع غير عويل العدم ممزوجاً بنعاب الغربان الحائمة حول فريسة شرائع البشر

ثلاثة من ابناء آدم كانوا بالامس على أحضان الحياة فأصبحوا اليوم في قبضة الموت

ثلاثة أساؤوا بعرف البشر الى الناموس فمدت الشريعة العمياء يدها وسحقتهم بقساوة

ثلاثة جعلهم الجهل مجرمين لانهم ضعفاء فجعلتهم الشريعة امواتاً لانها قوية

رجل فتك برجل آخر فقال الناس هذا قاتل ظالم وعند ما فتك به الامير قال الناس هذا امين عادل

ورجل حاول ان يسلب الدير فقال الناس هذا لص شرير ، وعند ما سلبه الامير حياته قالوا : هذا امير فاضل

وامرأة خانت بعلها فقال الناس هي زانية عاهرة . ولكن عند ما سيّرها الامير عارية ورجمها على رؤوس الاشهاد قالوا : هذا أمير شريف

سفك الدماء محرمٌ ، ولكن من حلله للامير ؟

سلب الاموال جريمة ، ولكن من جعل سلب الارواح فضيلة

خيانة النساء قبيحة ، ولكن من صيّر رجم الأجساد

جميلا ؟

أنقابل الشر بشر أعظم ونقول هذه هي الشريعة ·
ونقاتل الفساد بفساد أعم ونهتف هذا هو الناموس ·
ونغالب الجريمة بجريمة أكبر · ونصرخ هذا هو العدل ؟

أما صرع الأمير عدواً في غابر حياته ؟ أما سلب مالاً
أو عقاراً من أحد تابعيه الضعفاء ؟ أما راود امرأة جميلة عن
نفسها ؟ هل كان معصوماً عن هذه المحرمات فجاز له اعدام
القاتل وشنق السارق ورجم الزانية ؟

ومن هم الذين رفعوا هذا اللص على الشجرة أملائكة
نزلوا من السماء أم رجال يغتصبون ويسرقون كل ما تصل
اليه أيديهم ؟

ومن قطع رأس هذا القاتل ! أأنبياء هبطوا من
العلاء ام جنود يقتلون ويسفكون الدماء اينما حلوا !!

ومن رجم هذه الزانية ! أنساك طاهرون أتوا من
صوامعهم أم بشر يأتون المنكرات ويفعلون الرذائل مختبئين
بستائر الظلام ؟

الشريعة ــ وما هي الشريعة ؟ من رآها نازلة مع نور

الشمس من أعماق السماء ؟ واي بشري رأى قلب اللهفعلم مشيئته في البشر . وفي اي جيل من الاجيال سار الملائكة بين الناس قائلين : احرموا الضعفاء نور الحياة ، وافنوا الساقطين بحد السيف ، ودوسوا الخطاة بأقدام من حديد

وظلت هذه الافكار تتزاحم على فكرتي وتتساهم عواطفي حتى سمعت وطء اقدام قريبة مني فنظرت واذا بصبية قد ظهرت من بين الاشجار واقتربت من الجثث الثلاث متحذرة متلفتة بخوف الى كل ناحية . حتى اذا ما رأت رأس الفتى المقطوع صرخت جزعاً وركعت بجانبه وطوقته بزنديها المرتجفتين ، وأخذت تستفرغ الدموع من عينيها ، وتلامس شعره الجعدي بأطراف اصابعها وتنتحب بصوت عميق جارج خارج من صميم الكبد ، ولما أنهكها البكاء وغلبتها الحسرات ، اسرعت تحفر التراب بيديها حتى اذا ما حفرت قبراً وسيعاً وجرت اليه الفتى المصروع ومددته على مهل ووضعت رأسه المضرج بالدماء بين كتفيه وبعد ان غمرته بالتراب غرست نصل السيف الذي قطع عنقه على قبره ،

واذ همت بالانصراف تقدمت نحوها فاجفلت وارتعشت خوفاً ثم اطرقت والدمع السخين يتساقط كالمطر من مقلتيها وقالت متنهدة : اشكني الى الامير ان شئت فخير لي أن أموت وألحق بمن خلصني من قبضة العار من أن أترك جسده طعاماً لقشاعم الطير والوحوش الكواسر . فاجبتها قائلا : لا تخافي مني ايتها المسكينة ، فانا قد ندبت حظ فتاك قبلك بل خبريني كيف انقذك من قبضة العار

فقالت والغصص تقطع صوتها : جاء قائد الامير الى حقولنا ليتقاضى الضرائب ويجمع الجزية ولما رآني نظر اليّ نظرة استحسان مخيفة ثم فرض ضريبة باهظة على حقل والدي الفقير يعجز الغني عن دفعها فقبض عليّ ليقتادني قهراً الى صرح الامير بدلا من الذهب فاسترحمته بدموعي فلم يحفل واستحلفته بشيخوخة والدي فلم يرحم فصرخت مستغيثة برجال القرية فجاء هذا الشاب وهو خطيبي وخلصني من بين يديه القاسيتين فاستشاط غضباً وهم ان يفتك به فسبقه الشاب وامتشق سيفاً قديما معلقا على الحائط وصرعه به مدافعاً عن حياته وعن عرضي ، ولكبر نفسه لم يفر هاربا

كالقتلة المجرمين بل لبث واقفاً بقرب جثة القائد الظلوم حتى جاء الجند وساقوه الى السجن مكبلا بالقيود

قالت هذا ونظرت اليّ نظرة تذيب الفؤاد وتثير الشجون وولت مسرعة ورنات صوتها الموجعة تولد بين تموجات الاثير اهتزازاً وارتعاشاً

وبعد هنيهة نظرت فرأيت فتى في ربيع العمر يتقدم ساتراً وجهه باثوابه حتى اذا ما بلغ جثة المرأة الزانية وقف بقربها وخلع عباءته وستر بها اعضاءها العارية وأخذ يحفر الارض بخنجر كان معه ثم حملها بهدوء وواراها التراب ساكبا مع كل حفنة قطرة من اجفانه . ولما انتهى من عمله جنى بعض الزهور النابتة هناك ووضعها على القبر منحني الرأس منخفض الطرف . واذ هم بالذهاب أوقفته قائلا : ما نسبة هذه المرأة الساقطة إليك حتى سعيت مخالفا ارادة الامير ومخاطراً بحياتك لكي تحمي جسدها المرضوض من طيور السماء الجوارح .

فنظر اليّ وأجفانه المقرحة من البكاء والسهر تتكلم عن شدة حزنه ولوعته وبصوت مخنوق ترافقه التنهيدات الاليمة قال : أنا هو ذلك الرجل التعس الذي رُجمت من

أجله ــ أحببتها وأحبتني مذ كنا صغرين نلعب بين المنازل. نمونا ونما الحب معنا حتى صار سيداً قويا نخدمه بعواطف قلبينا فيستميلنا اليه ونهابه بسرائر روحينا فيضمنا الى صدره. ففي يوم وقد كنت غائبا عن المدينة زوّجها والدها كرها من رجل تكرهه ولما رجعت وسمعت بالخبر تحولت ايامي الى ليل طويل حالك وصارت حياتي نزاعا مراً متواصلا. وبقيت أصارع عواطفي وأغالب ميول نفسي حتى تغلبت علي وقادتني مثلما يقود البصير ضريراً اعمى. فذهبت الى حبيبتي سراً واقصى مرامي أن ارى نور عينيها واسمع نغمة صوتها فوجدتها منفردة تندب حظها وترثي ايامها فجلست والسكينة حديثنا والعفاف ثالثنا ــ ولم تمر ساعة حتى دخل زوجها فجأة ولما رآني أوعزت اليه نياته القذرة فقبض على عنقها الاملس بكفيه القاسيتين وصرخ بأعلى صوته : تعالوا وانظروا الزانية وعشيقها. فهرول الجيران ثم جاء الجند مستطلعين الخبر فأسلمها الى ايديهم الخشنة فاقتادوها محلولة الشعر ممزقة الاثواب. اما انا فلم يمسني احد بضرر لأن الشريعة العمياء والتقاليد الفاسدة تعاقب المرأة اذا

سقطت ، أما الرجل فتسامحه .

وعاد الشاب نحو المدينة ساتراً وجهه بأثوابه ولبثت انا ناظراً متأملًا متنهداً وجثة اللص المشنوق ترتجف قليلًا كلما هز الهواء اغصان الشجرة كأنها تسترحم بجرا كهـا أرواح الفضاء لتهبط وتمددها على صدر الارض بجانب قتيل المروءة وشهيدة الحب .

وبعد ساعة ظهرت امرأة ضعيفة الجسم ترتدي خرقاً بالية ووقفت بقرب المشنوق تقرع صدرها باكية ثم تسلقت الشجرة وقضمت حبل الكتان باسنانها فسقط الميت على الارض سقوط الثوب البليل . فنزلت المرأة وحفرت قبراً بجانب القبرين ووضعته فيه . وبعد انغمرته بالتراب أخذت قطعتين من الخشب وصنعت منهما صليباً وغرسته فوق رأسه . ولما تحولت نحو الوجهة التي جاءت منها اوقفتها قائلًا : ما غرّكِ ايتها الإمرأة فجئتِ تدفنين لصاً سارقاً .

فنظرت اليّ بعينين غارقتين مكحولتين بأشباح الكآبة والشقاء وقالت : هو زوجي الصالح ورفيقي

الخنون ووالد أطفالي. خمسة أطفال يتضورون جوعاً أكبرهم في الثامنة وأصغرهم رضيع لم يفطم ... لم يكن زوجي لصاً بل كان زارعاً يفلح أرض الدير ويستغلها ولا يحصل من الرهبان الا على رغيف نتقاسمه عند المساء ولا تبقى منه لقمة الى الصباح ... مذ كان فتى وهو يسقي بعرق جبينه حقول الدير ويزرع عزم ساعديه في بساتينه . ولما ضعف وانتهبت اعوام العمل قواه وراودت الامراض جسده أبعدوه قائلين : لم يعد الدير محتاجاً اليك فاذهب الآن وعندما يشب ابناؤك ابعثهم الينا لكي يأخذوا مكانك في الحقل . فبكى وابكاني وأسترحمهم باسم يسوع واستحلفهم بالملائكة والقديسين فلم يرحموه ولم يشفقوا عليه وعليّ وعلى صغارنا العراة الجائعين فذهب يطلب عملاً في المدينة وعاد مطروداً لان سكان تلك القصور لا يستخدمون الا الفتيان الاقوياء . ثم جلس على قارعة الطريق مستعطياً فلم يحسن الناس اليه بل كانوا يمرون به قائلين: الصدقة لا تجوز على مغلوب التواني والكسل . ففي ليلة وقد برح العوز بنا حتى صار اطفالنا يتلوون

جوعاً على التراب . والرضيع بينهم يمص ثديي ولا يجد لبناً .
وتغيرت ملامح زوجي وذهب مستتراً بالظلام ودخل قبواً
من أقبية الدير حيث يخزن الرهبان غلة الحقول وخمر الكروم
وحمل زنبيلاً من الدقيق على ظهره وهمّ بالرجوع الينا. لكنه لم
يسر بضع خطوات حتى استيقظ القسس من رقادهم
وقبضوا عليه وأوسعوه ضرباً وشتماً وعندما جاء الصباح
اسلموه الى الجند قائلين : هو لص شرير جاء لكي يسرق
آنية الدير الذهبية فاقتاده الجند الى السجن ثم الى المشنقة
ليملأوا أجواف العقبان من جسده لانه حاول ان يملأ
أجواف صغاره الجياع من فضلات الغلة التي جناها باتعابه
اذ كان خادماً للدير

وذهبت المرأة الفقيرة ولكلامها المتقطع اشباح محزنة
تتصاعد وتتسارع الى كل ناحية كأنها اعمدة من الدخان
يتلاعب بها الهواء .

***

وقفت بين القبور الثلاث وقفة مؤبن ارتج عليه

وانعقد لسانه لوعة فانسكب دمعه متكلماً عن عواطفه .

وحاولت التفكر والتأمل فعصتني نفسي لان النفس كالزهرة تضم اوراقها امام الظلمة ولا تعطي انفاسها لخيالات الليل

وقفت ومن دقائق تراب تلك القبور ينبثق صراخ التظلم انبثاق الضباب من خلايا الاودية ويتموّج حول مسامعي ليوحي اليّ الكلام

وقفت ساكتاً ولو فهم الناس ما تقوله السكينة لكانوا اقرب الى الآلهة منهم الى كواسر الغاب

وقفت متنهداً ولو لامست شعلات تنهيداتي اشجار ذلك الحقل لتحركت وتركت اماكنها وزحفت كتائب كتائب وحاربت بقضبانها الامير وجنوده وهدمت بجذوعها جدران الدير على رؤوس رهبانه

وقفت ناظراً ومع نظراتي تنسكب حلاوة الشفقة ومرارة الحزن على جوانب تلك القبور الجديدة — قبر فتى دافع بحياته عن شرف عذراء ضعيفة وانقذها من بين اظافر ذئب كاسر فقطعوا عنقه جزاء شجاعته، وقد أغمدت تلك

الصبية سيفه بتراب قبره ليبقى هناك رمزاً يتكلم امام وجه الشمس عن مصير الرجولة في دولة الجيف والغباوة — وقبر صبية لامس الحب نفسها قبل ان تغتصب المطامع جسدها فرجمت لأن قلبها أبى الا ان يكون اميناً حتى الموت . وقد وضع حبيبها باقة من زهور الحقل فوق جسدها الهامد لتتكلم بذبولها وفنائها البطيء عن مصير النفوس التي يقدسها الحب بين قوم اعمتهم المادة واخرسهم الجهل — وقبر فقير بائس أوهت ساعديه حقول الدير فطرده الرهبان ليستعيضوا عنها بسواعد غيره . فطلب الخبز لصغاره بالعمل فلم يجده . ثم رجاه بالتسول فلم ينله ، وعندما دفعه اليأس الى استرجاع قليل من الغلة التي جمعها باتعابه وعرق جبينه قبضوا عليه وفتكوا به . وقد وضعت ارملته صليباً على قبرة ليستشهد في سكينة الليل نجوم السماء على ظلم رهبان يحولون تعاليم الناصري الى سيوف يقطعون بها الرقاب ويمزقون بحدودها السنينة اجساد المساكين والضعفاء

وتوارت الشمس آذ ذاك وراء الشفق كأنها ملت

متاعب البشر وكرهت ظلمهم وابتدأ المساء يحيك من خيوط الظل والسكون نقاباً دقيقاً ليلقيه على جسد الطبيعة فرفعت عينيّ الى العلاء وبسطت يدي نحو القبور وما عليها من الرموز وصرخت بأعلى صوتي : هـذا هو سيفك ايتها الشجاعة فقد اغمد بالتراب وهذه هي زهورك ايها الحب فقد لفحتها النيران . وهذا هو صليبك يا يسوع الناصري فقد غمرته ظلمة الليل .

مضجع العروس

خرج العريس والعروس من الهيكل يتبعهما المهنئون الفارحون وتتقدمهما الشموع والمصابيح • ويسير حولهما الفتيان المترنمون بالاهازيج والصبايا المنشدات اغاني السرور

بلغ الموكب منزل العريس المزدان بالرياش الثمينة والاواني المتلامعة والرياحين العطرة فاعتلى العروسان مقعداً مرتفعا وجلس المدعوون على الطنافس الحريرية والكراسي المخملية حتى غصت تلك القاعة الوسيعة بأشكال الناس • وسعى الخدام بآنية الشراب فتصاعدت رنات الكؤوس متآلفة مع هتاف الغبطة ، ثم جاء الموسيقيون وجلسوا يسكرون النفوس بانفاسهم السحرية ويبطنون الصدور بألحانهم المنسوجة مع همس اوتار العود وتنهيدات الناس وحفيف الدفوف

هذه حادثة جرت في شمال لبنان في النصف الاخير من الجيل التاسع عشر وقد اخبرتني بها سيدة فاضلة من تلك النواحي تنتسب الى احد اشخاص الحكاية •

ثم قامت الصبايا يرقصن ويتمايلن بقامـــات تلاحق مقاطيع اللحن مثلما تتابع الاغصان اللينة مجاري هبوب النسيم وتنثني طيات اثوابهن الناعمة كأنها سحب بيضاء يداعبها شعاع القمر . فشخصت اليهن الابصار وسجدت لهن الرؤوس وعانقتهن أرواح الفتيان وتفطرت لجمالهن مرائر الشيوخ ثم مـال الجميع يستزيدون من الشراب ويغمرون أميالهم بالخمور . فنمت الحركة وعلت الاصوات وسادت الحرية وتوارت الرزانـة وتضعضعت الادمغة وتلهبت النفوس واضطربت القلوب واصبح ذلك المنزل بكل مـا فيه كقيثارة مقطعة الاوتار في يد جنية غير منظورة تضرب عليها بعنف وتولد منها انغاما جامعة بين التناسق والالتباس : فهنا فتى يبوح بسرائر حبه لفتاة أولاها الجمال تيها ودلالا . وهنالك شاب يستعد لمحادثـة حسناء مستحضراً الى حافظته اعذب الالفاظ وأرق المعاني . وهنالك كهل يجرع الكاس وراء الكاس ويطلب بلجاجة الى المنشدين إعادة اغنية ذكرته بأيام صبابته . في هذه القرنة امرأة تغامز بأطراف اجفانها رجلا ينظر بمودة الى

سواها . وفي تلك الزاوية سيدة قد بيض الشيب مفرقها تنظر مبتسمة نحو الصبايا لتنتقي منهن عروسة لوحيدها. وبجانب تلك النافذة زوجة قد اتخذت سكر حليلها فرصة فاقتربت من خليلها وجميعهم غارقون في بحر من الخمر والغزل مستسلمون الى تيار الغبطة والسرور متناسون حوادث الامس منصرفون عن مآتي الغد منعكفون على استثمار دقائق الحاضر

كان يجري كل ذلك والعروس الجميلة تنظر بعينين كئيبتين الى هذا المشهد مثلما ينظر الاسير اليائس الى جدران سجنه السوداء . وتتلفت بين الآونة والاخرى نحو زاوية من زوايا تلك القاعة حيث جلس فتى في العشرين من عمره منفرداً عن الناس المغبوطين انفراد الطائر الجريح عن سربه ، مبكلاً زنديه على صدره كأنه يحول بهما بين قلبه والفرار محدقاً بشيء غير منظور في فضاء تلك القاعة كأن ذاته المعنوية قد انفصلت عن ذاته الحسية وسبحت في الخلاء متبعة اشباح الدجى

انتصف الليل وتعاظمت غبطة الجماعة حتى صارت

ثورة ، واختمرت ادمغتهم حتى تلجلجت ألسنتهم ، فقام العريس من مكانه وهو كهل خشن المظاهر وقد تغلب السكر على حواسه وطاف يتكلف اللطف والرقة بين الناس

في تلك الدقيقة اومأت العروس الى صبية ان تقترب منها فاقتربت وجلست بجانبها وبعد ان تلفتت العروس الى كل ناحية تلفت جازع يريد ان يفشي سراً خفيًا هائلًا لزّت الى الصبية وهمست في اذنها هذه الكلمات بصوت مرتعش :

استحلفك يا رفيقتي بالعواطف التي ضمت نفسينا مذ كنا صغيرتين . استحلفك بكل ما هو عزيز لديك في هذه الحياة . استحلفك بخبآت صدرك . استحلفك بالحب الذي يلامس ارواحنا ويجعلها شعاعا . استحلفك بافراح قلبك واوجاع قلبي ان تذهبي الآن الى سليم وتطلبي اليه ان ينزل خفية الى الحديقة وينتظرني هناك بين اشجار الصفصاف . تضرعي عني يا سوسان حتى يجيب طلبي . ذكريه بالايام الغابرة ، توسلي اليه باسم الحب ، قولي له هي تعسة عمياء ، قولي هي مائتة تريد ان تفتح قلبها امامك قبل ان يكتنفها الظلام ، قولي له هي هالكة شقية تريد ان ترى نور عينيك قبل ان

تختطفها نار الجحيم ، قولي له هي خاطئة تريد ان تعترف بذنوبها وتلتمس عفوك ، اسرعي اليه وابتهلي عني امامه ولاتخافي مراقبة هؤلاء الخنازير لان الخمور قد سدت آذانهم واعمت بصائرهم

فقامت سوسان من جانب العروس وجلست بقرب سليم الكئيب المنفرد وحده واخذت تستعطفه هامسة في في اذنه كلمات رفيقتها ودلائل الود والاخلاص بادية على ملامحها وهو منحني الرأس يسمع ولا يجيب ببنت شفة. حتى اذا ما انتهت من كلامها نظر اليها نظرة ظامىء يرى الكاس في قبة الفلك وبصوت منخفض تخاله آتياً من اعماق الارض اجابها قائلا : سوف انتظرها في الحديقة بين اشجار الصفصاف

قال هذه الكلمات وقام من مكانه وخرج الى الحديقة

ولم تمض بضع دقائق حتى قامت العروس واتبعته مختلسة خطواتها بين رجال فتنتهم ابنة الكروم ونساء اشغلت قلوبهن صبابة الفتيان . ولما بلغت الحديقة الموشاة باثواب الليل اسرعت ملتفتة الى الوراء . ومثل غزال جازع

هارب الى كناسه من الذئاب الخاطفة تقدمت نحو اشجار الصفصاف حيث وقف ذلك الفتى . ولما رأت نفسها بجانبه ترامت عليه وطوقت عنقه بزنديها واحدقت بعينيه ثم قالت والالفاظ تتسارع من شفتيها بسرعة الدموع من اجفانها :
اسمعني يا حبيبي . اسمعني جيداً . ها قد ندمت على جهالتي وتسرعي . قد ندمت يا سليم حتى سحقت الندامة كبدي . انا احبك ولا احب سواك وسوف أحبك الى منتهى العمر ، قد اخبروني بأنك سلوتني وهجرتني وتعلقت بهوى غيري اخبروني بكل ذلك يا سليم وسمموا اقلبي بألسنتهم ومزقوا صدري باظافرهم وملأوا نفسي بكذبهم . قد اخبرتني نجيبة بأنك سلوتني وكرهتني وانشغفت بحبها . قد ظلمتني تلك الخبيثة واحتالت على عواطفي لكي أرضى بنسيبها عريساً فرضيته يا سليم ولا عريس لي سواك . والآن ، والآن قد رفع الغشاء عن عيني فجئت اليك . قد خرجت من هذا المنزل ولن اعود اليه . قد جئت لكي اضمك بذراعي ولا توجد قوة في هذا العالم ترجعني الى ذراعي الرجل الذي زففت اليه كرهاً ويأساً . قد تركت العريس الذي اختاره لي

الكذب بعلا، وتركت الوالد الذي اقامه القدر وليا، وتركت الزهور التي ضفرها الكاهن اكليلا ، وتركت الشرائع التي حبكتها التقاليد قيوداً . قد تركت كل شيء في هذا المنزل المملوء بالسكر والخلاعة واتيت لاتبعك الى ارض بعيدة، الى اقاصي العالم ، الى مكامن الجن ، الى قبضة الموت، تعال نسرع يا سليم من هذا المكان متسترين بوشاح الليل . هلم نسير الى الساحل ونركب سفينة تحملنا الى بلاد بعيدة مجهولة. تعال نمشي الآن فلا يجيء الفجر الا ونحن في مأمن من أيدي العدو . انظر ، انظر هذه الحلى الذهبية وهذه القلائد والخواتم الثمينة ، وهذه الجواهر النفيسة ، فهي تكفل مستقبلنا وتكفي لنعيش بأثمانها كالامراء .. لماذا لا تتكلم يا سليم ؟ لماذا لا تنظر اليّ ؟ لماذا لا تقبلني ؟ أسامع انت صراخ قلبي وعويل نفسي — ألا تصدق باني هجرت عريسي وابي وامي وجئت بأثواب العرس لكي اهرب معك ؟ تكلم او هلمّ نسرع فهذه الدقائق اثمن من حبات الالماس واغلى من تيجان الملوك !

كانت العروس تتكلم وفي صوتها نغمة اعذب من

همس الحياة وامر من عويل الموت وألطف من حفيف الاجنحة وأعمق من انين الامواج — نغمة تتموج نبضاتها بين اليأس والامل ، واللذة والالم ، والفرح والشقاء ، وكل ما في صدر الامرأة من الميول والعواطف .

اما الشاب فكان يسمع وفي داخل نفسه يتصارع الحب والشرف : ذلك الحب الذي يجعل الوعر سهلاً ، والظلام نوراً ، وذلك الشرف الذي يقف امام النفس ، ويثنيها عن رغائبها ومنازعها . ذلك الحب الذي ينزله الله على القلب ، وذلك الشرف الذي تسكبه تقاليد البشر في الدماغ

وبعد أحيان خرساء هائلة شبيهة بالاجيال المظلمة التي تتمايل فيها الامم بين النهوض والاضمحلال ، رفع الشاب رأسه وقد تغلب شرف نفسه على ميلها وحول عينيه عن الصبية الخائفة المترقبة وقال بهدوء : ارجعي ايتها الامرأة الى ذراعي عريسك فقد قضي الامر ومحت اليقظة ما صورته الاحلام — اسرعي الى احضان المسرات قبل ان تراك أعين الرقباء فيقول الناس قد خانت عريسها في ليلة العرس مثلما خانت حبيبها ايام البعاد

فارتعشت العروس لهذه الكلمات وتململت كزهرة ذابلة امام الريح ثم قالت متوجعة : لا اعود الى هذا المنزل وبي رمق من الحياة ، قد خرجت منه الى الابد ، قد تركته وكل من فيه مثلما يترك الاسير ارض المنفى فلا تبعدني عنك ولا تقل بانني خائنة ، لان يد الحب التي مزجت روحي بروحك هي أقوى من يد الكاهن التي أسلمت جسدي الى مشيئة العريس ، ها قد طوقت ذراعيّ حول عنقك فلا تحلهما القوات وقربت نفسي الى نفسك فلا يفرقهما الموت

فقال الشاب محاولا الخلاص من ذراعيها متكلفا اظهار المقت والاشمئزاز : ابتعدي عني ايتها المرأة فقد سلوتك، نعم سلوتك وكرهتك وتعلقت بهوى غيرك ، فلم يقل الناس غير الصحيح . هل سمعت ماذا اقول ؟ قد سلوتك حتى نسيت وجودك وكرهتك حتى ابت نفسي مرآك فابتعدي عني ودعيني اذهب في سبيلي ، وعودي الى عريسك وكوني له زوجة امينة

فقالت الصبية متفجعة : لا ، لا اصدق كلامك فانت تحبني وقد قرأت معنى الحب في عينيك وشعرت بملامسه

عندما لمست جسدك . انت تحبني وتحبني وتحبني مثلما احبك ، فانا لا اترك هذا المكان الا بجانبك ولن ادخل هذا المنزل وفي نفسي بقية من الارادة . قد جئت لكي اتبعك الى آخر الارض فسر امامي وارفع يدك واهرق دمي

فقال الشاب وقد رفع صوته عن ذي قبل : اتركيني أيتها الامرأة والا صرخت بأعلى صوتي وجمعت في هذه الحديقة اولئك الناس المدعوين الى أفراح عرسك وأريتهم عارك وجعلتك مضغة مرة في أحناكهم ومثلا قبيحا على السنتهم واوقفت نجيبة التي احبها قلبي تسخر بك وتبتسم فارحة بانتصارها مستهزئة بانغلابك

قال هذا وامسك بذراعها ليبعدها عنه فتغيرت ملامحها وابرقت عيناها وتحولت بكليتها من الاستعطاف والرجاء والتوجع الى الغضب والقساوة وصارت كلبوة فقدت أشبالها او كبحر اثارت اعماقه الزوابع ثم صرخت : من هي التي تتمتع بحبك بعدي واي قلب يسكر بقبل شفتيك غير قلبي !

لفظت هذه الكلمات وانتشلت من بين اثوابها خنجراً سنيناً واغمدته بصدره بسرعة البرق ، فهوى وسقط على

الارض كغصن قصفته العاصفة فانحنت فوقه والخنجر في يدها يقطر دماً ، ففتح عينيه المغمورتين بظل الموت وارتشعت شفتاه وخرجت هذه الكلمات مع انفاسه الضعيفة : اقتربي الآن يا حبيبتي اقتربي يا ليلى ولا تتركيني . الحياة اضعف من الموت والموت اضعف من الحب . اسمعي اسمعي قهقهة الفارحين بعرسك اسمعي رنين كؤوسهم ياحبيبتي . لقد انقذتني ياليلى من قساوة هذه القهقهة ومرارة تلك الكؤوس فدعيني اقبل اليد التي كسرت قيودي . قبلي شفتيّ . قبلي شفتيّ اللتين تكلفتا الكذب واخفتا اسرار قلبي . اغمضي اجفاني الذابلة باصابعك المغموسة بدمي . وعندما تطير روحي في الفضاء ضعي الخنجر في يميني وقولي لهم قد انتحر يأساً وحسداً . قد احببتك يا ليلى ولم احب سواك ولكنني رأيت تضحية قلبي وسعادتي وحياتي افضل من الهرب بك في ليلة عرسك . قبليني يا حبيبة نفسي قبل ان يرى الناس جثتي .. قبليني ، قبليني يا ليلى

ووضع المصروع يده فوق قلبه المطعون ولوى عنقه وفاضت روحه !

فرفعت العروس رأسها والتفتت نحو المنزل وصرخت بصوت هائل : تعالوا ، تعالوا ايها الناس، فهنا العرس وهذا العريس ، هلموا لنريكم مضجعنا الناعم . استيقظوا أيها النيام وانتبهوا أيها السكارى واسرعوا لنريكم أسرار الحب والموت والحياة

تموج صراخ العروس في زوايا ذلك المنزل حاملا كلماتها الى آذان المحتفلين المغبوطين ، فارتعشت ارواحهم ، واصغوا هنيهة كأن الصحو قد باغت نشوتهم ثم تراكضوا مسرعين من أبواب المنزل ومخارجه وساروا متلفتين يميناً وشمالا حتى اذا ما رأوا جثة المصروع والعروس الجاثية بقربها تراجعوا مذعورين الى الوراء ولا احد منهم يجسر على استقصاء الخبر كأن منظر الدماء المنبعثة من صدر القتيل ولمعان الخنجر في يد العروس قد عقد السنتهم واجمد الحياة في اجسادهم

فالتفتت العروس اليهم وقد اتشحت ملامحها بهيبة محزنة وصرخت قائلة : اقتربوا ايها الجبناء ولا تخافوا خيال الموت فهو عظيم لا يدنو من صغارتكم اقتربوا ولا ترتجفوا

جزءاً من هذا الخنجر فهو آلة مقدسة لا تلامس اجسادكم القذرة وصدوركم المظلمة . انظروا هذا الفتى الجميل المتسربل بحلة العرس — هو حبيبي وقد قتلته لانه حبيبي — هو عريسي وأنا عروسته وقد بحثنا فلم نجد مضجعاً يليق بعناقنا في هذا العالم الذي جعلتموه ضيقا بتقاليدكم ومظلما بجهالتكم وفاسداً بلهاثكم ففضلنا الذهاب الى ما وراء الغيوم اقتربوا ايها الضعفاء الخائفون وانظروا لعلكم ترون وجه الله منعكساً على وجهينا وتسمعون صوته العذب منبثقاً من قلبينا — اين هي تلك المرأة الخبيثة الحسودة التي وشت اليّ بحبيبي وقالت بانه شغف بها وسلاني وتعلق بحبها لينساني . قد توهمت تلك الشريرة بانها ظفرت عندما رفع الكاهن يده فوق رأسي ورأس نسيبها . اين نجيبة المحتالة — اين تلك الافعى الجهنمية — دعوها تقترب الآن وترى بانها قد جمعتكم لتفرحوا بعرس حبيبي وليس بعرس الرجل الذي اختارته لي ... انتم لا تفهمون كلامي ، لان اللجة لا تعي اغاني الكواكب . لكنكم سوف تخبرون ابناءكم عن المرأة التي قتلت حبيبها ليلة عرسها . سوف تذكروني

وتلعنوني بشفاهكم الاثيمة أما أحفادكم فسوف يباركونني
لان الغد سيكون للحق والروح ..وانت ايها الرجل الغبي
الذي استخدم الحيلة والمال والخباثة ليصيرني لهزوجة ـــ
أنت رمز هذه الامة التعسة التي تبحث عن النور في الظلمة
وتترقب خروج الماء من الصخرة ، وظهور الورد من
القطرب ـــ انت رمز هذه البلاد المستسلمة لغباوتها استسلام
الاعمى الى قائده الاعمى ـــ انت ممثل الرجولة الكاذبة التي
تقطع الاعناق والمعاصم توصلاً الى العقود والاساور . انا
اغتفر لك صغارتك لان النفس الفارحة بذهابها من هذا
العالم تغتفر جميع زلات هذا العالم

حينئذ رفعت العروس خنجرها نحو العلاء ونظير
ظامىء يقرب حافة الكأس الى شفتيه أغمدته بعزم في
صدرها وهبطت بجانب حبيبها نظير زنبقة قطع عنقها حد
المنجل . فتململت النساء وصرخن صراخ الخوف والالم
واغمي على بعضهن وتصاعد ضجيج الرجال من كل ناحية
واقتربوا من المصروعين بوجل وهيبة

فنظرت اليهم العروس المنازعة وقالت ونجيع الدماء

ينهل بغزارة من صدرها البلوري : لا تقتربوا ايها العاذلون ولا تفصلوا بين جسدينا ، وان حاولتم فالروح الحائمة فوق رؤوسكم تقبض على اعناقكم وتخنقكم بعنف وقساوة . دعوا هذه الارض الجائعة تلوك جسدينا لقمة واحدة ، دعوها تخفينا وتحمينا في صدرها مثلما تحمي البزور من ثلوج الشتاء حتى يجيء الربيع .

ولزت العروس الى حبيبها والقت شفتيها على شفتيه الباردتين وخرجت هذه الكلمات المتقطعة مع انفاسها الاخيرة : انظر يا حبيبي — انظر يا عريس نفسي كيف وقف الحساد حول مضجعنا — انظر عيونهم المحدقة بنا ، واسمع صرير أسنانهم وتكسير ضلوعهم . قد انتظرتني طويلاً يا سليم فها انذا . قد كسرت القيود وفككت السلاسل فلنسر عن نحو الشمس فقد طال وقوفنا في الظل . ها قد امحت الرسوم وانحجبت الاشياء فلم اعد ارى سواك يا حبيبي — ها شفتاي فاقتبل انفاسي الاخيرة . هلم نذهب يا سليم فقد رفع الحب اجنحته وسبح أمامنا نحو دائرة النور .

والقت العروس صدرها على صدر حبيبها فامتزجت

دماؤها بدمائه وأحنت رأسها على عنقه وظلت عيناها محدقتين بعينيه

ولبث الناس صامتين هنيهة وقد اصفرت وجوههم وتراخت ركابهم كأن هيبة الموت قد سلبتهم القوة والحراك

فتقدم اذ ذاك الكاهن الذي ضفر بتعاليمه اكاليل ذلك العرس واشار بيمينه نحو القتيلين ونظر نحو القوم المذهولين وخاطبهم بصوت خشن قائلاً: ملعونة هي الايدي التي تمد الى هذين الجسدين الملطخين بدماء الجريمة والعار . وملعونة هي الاعين التي تذرف دموع الحزن على هالكين قد حملت الابالسة روحيهما الى الجحيم . لتبق جثة ابن سادوم وجثة ابنة عمورة مطروحتين على هذا التراب الدنس المجبول بدمائهما حتى تتقاسم لحمانهما الكلاب وتذري عظامهما الرياح اذهبوا الى مساكنكم ايها الناس واهربوا من الرائحة المنتنة المتصاعدة من داخل قلبين جبلتهما الخطيئة وسحقتهما الرذيلة . تفرقوا ايها الواقفون بقرب هاتين الجيفتين ، وانصرفوا مسرعين قبل ان تلسعكم ألسنة النار الجهنمية ومن يبق منكم ههنا يكن محروما ومرذولا فلا يدخل

الهيكل الذي يركع فيه المؤمنون ولا يشترك بالصلاة التي يقدمها المسيحيون ! .

فتقدمت سوسان ، تلك الصبية التي بعثتها العروس رسولا الى حبيبها ، ووقفت امام الكاهن ونظرت اليه بعينين مغرورقتين بالدموع وقالت بشجاعة : انا ابقى هنا ايها الكافر الاعمى وانا احرسهما حتى يجيء الفجر وانا احفر لهما قبراً تحت هذه الاغصان المتدلية . فان منعتم عني محفراً مزقت صدر الارض باصابعي ، وان ربطتم ساعدي حفرته باسناني ، اسرعوا من هذا المكان المملوء برائحة البخور واللبان فالخنازير تأبى استنشاق العطور الزكية ، واللصوص الخاطفة تهاب رب البيت وتخشى قدوم الصباح . اسرعوا الى مضاجعكم المظلمة لان اغاني الملائكة المتموجة فوق شهيدي الحب لا تدخل آذانكم المسدودة بالتراب .

وتفرق الناس من أمام وجه الكاهن العبوس ولبثت تلك الصبية واقفة بقرب الجثتين الهامدتين كأنها أم رقوب تحرس طفليها في سكينة الليل . ولما توارى الجمع وخلا ذلك المكان استسلمت للبكاء والنحيب .

خليل الـكافر

١

كان الشيخ عباس بين سكان تلك القرية المنزوية في شمال لبنان كالامير بين الرعية . وكان منزله القائم بين أكواخهم الحقيرة يشابه الجبار الواقف بين الاقزام . وكانت معيشته ممتازة عن معيشتهم بميزة السعة عن العوز واخلاقه مختلفة عن اخلاقهم باختلاف القوة عن الضعف

ان تكلم الشيخ عباس بين اولئك الفلاحون احنوا رؤوسهم ايجاباً كأن القوى العقلية قد انتدبته ممثلاً لها واتخذت لسانه ترجماناً عنها . وان غضب ارتجفوا جزعاً وتبددوا من امام وجهه مثلما تترا كض اوراق الخريف امام الارياح وان صفع خد رجل منهم ظل ذلك الرجل جامداً صامتاً كأن الضربة قد اتت من السماء فمن الكفر ان يتجاسر او يرفع عينيه ليرى من انزلها.وان تبسم لرجل آخر قال الجميع ما اسعده فتى رضي عنه الشيخ عباس

ولم يكن استسلام اولئك المساكين الى الشيخ عباس

وخوفهم قساوته صادرين عن ضعفهم وقوته فقط بل كانا ناتجين عن فقرهم واحتياجهم اليه • لان الحقول التي كانوا يحرثونها والاكواخ التي يسكنونها كانت ملكه وقد ورثها عن ابيه وجده مثلما ورثوا الفقر والتعاسة من ابائهم وجدودهم • فكانوا يفلحون الارض ويزرعونها ويحصدونها تحت مراقبته ولا يحصلون لقاء اتعابهم وجهادهم الا على جزء من الغلة لا يكاد ينقذهم من اظافر الجوع • قد كان اكثرهم يحتاج الخبز قبل انقضاء ايام الشتاء الطويلة فيذهب اليه الواحد بعد الاخر ويتضرع امامه باكياً مستعطفاً لكي يقرضه ديناراً او مكيالا من الحنطة فكان الشيخ عباس يجيب سؤلهم مسروراً لعلمه بانه سيستوفي الدينار دينارين ومكيال الحنطة مكيالين عندما تجيء ايام البيادر والموسم. وهكذا كان يبقى هؤلاء التعساء مثقلين بديون الشيخ عباس مكبلين بحاجتهم اليه خائفين غضبه طالبين رضاه

٢

قدم الشتاء بثلوجه وعواصفه وخلت الحقول والاودية الا من الغربان الناعبة والاشجار العارية فلزم سكان تلك القرية اكواخهم بعد ان اشبعوا اهراء الشيخ عباس من الغلة وملأوا آنيته من عصير الكروم واصبحوا ولا عمل لهم يفنون الحياة بجانب المواقد متذكرين مآتي الاجيال الغابرة مرددين على مسامع بعضهم حكايات الايام والليالي

انقضى كانون الاول وقضى العام العجوز متنهداً انفاسه الاخيرة في الفضاء الرمادي وجاءت الليلة التي يتوج فيها الدهر رأس عام الطفل ويجلسه على عرش الوجود.

توارى النور الضئيل وغمرت الظلمة البطاح والاودية وابتدأت الثلوج تنهمر بغزارة والعواصف تصفر وتتسارع ملعلعة من اعالي الجبال نحو المنخفضات حاملة الثلوج لتخزنها في الوهاد فترتعش لهولها الاشجار وتتململ امامها الارض فمزجت الارياح بين ما تساقط من الثلج في ذلك

النهار والساقط منه في تلك الليلة حتى اصبحت الحقول والطلول والممرات كصفحة واحدة بيضاء يكتب عليها الموت سطوراً مبهمة ثم يمحوها ، وفصل الضباب بين القرى المنثورة على كتفي الوادي وتوارت الانوار الضئيلة التي كانت تشعشع في نوافذ البيوت والاكواخ الحقيرة. وقبضت الرعبة على نفوس الفلاحين وانزوت البهائم بقرب المعالف واختبأت الكلاب في القراني ولم يبق سوى الريح تخطب وتضج على مسامع الكهوف والمغاير فيتصاعد صوتها الرهيب من اعماق الوادي تارة وطوراً ينقض من اعالي قمم الجبال . فكأن الطبيعة قد غضبت لموت العام العجوز فقامت تأخذ بثأره من الحياة المختبئة في الاكواخ وتحاربها بالبرد القارس والزمهرير الشديد

ففي هذه الليلة الهائلة وتحت هذا الجو الثائر كان فتى في الثانية والعشرين من عمره يسير على الطريق المتصاعدة بتدرج من دير قزحيا* الى قرية الشيخ عباس وقد ايس

* هو اغنى واشهر دير في لبنان تقدر حاصلاته بالوف الدنانير ويسكنه عشرات من الرهبان المعروفين بالبلديين. وقزحيا لفظة سريانية معناها (فردوس الحياة)

البرد مفاصله وانتزع الجوع والخوف قواه واخفت الثلوج ثوبه الاسود كأنها تريد ان تكفنه قبل ان تميته ، فكان يخطو الى الامام والارياح تصده وترجعه الى الوراء كانها ابت ان تراه في منازل الاحياء ، وتتشبث الطريق الوعرة باقدامه فيسقط ثم ينهك ثم يصرخ باعلى صوته مستغيثاً ثم يخرسه البرد فيقف صامتاً مرتجفاً فكأنه العناصر المتحاربة كالامل الضعيف بين اليأس الشديد والحزن العميق . او كعصفور مكسور الجناحين سقط في النهر فحمله التيار الغضوف الى الاعماق

وظل الشاب سائراً والموت يتبعه حتى خارت قواه وانحطت عزيمته وتجمدت الدماء في عروقه فارتمى على الثلوج

وصرخ صوتاً هائلاً هو بقية الحياة في جسده : صوت خائف قد رأى خيال الموت وجهاً لوجه . صوت منازع قانط اتلفته الظلمة وقبضت عليه العاصفة لترمي به الى الهاوية ، صوت محبة الكيان في فضاء العدم

٣

في الجهة الشمالية من تلك القرية كوخ صغير منفرد بين الحقول تسكنه امرأة تدعى راحيل مع ابنتها مريم غير المتجاوزة الثامنة عشرة من سنيها . هذه المرأة هي ارملة سمعان الرامي الذي وجد قتيلاً في البرية منذ خمسة اعوام ولم يعرف قاتله بعد

كانت راحيل مثل جميع الارامل الفقيرات تعيش بالاجتهاد والعمل مخافة الموت والفناء . فكانت تخرج ايام الحصاد وتلتقط السنابل المتروكة في الحقل وفي ايام الخريف كانت تجمع فضلات الاثمار المنسية في البساتين وفي الشتاء كانت تغزل الصوف وتخيط الاثواب لقاء دريهمات قليلة اومكيال من الذرة . وكانت جميع اعمالها مقرونة بالثبات والصبر والاعتناء . أما ابنتها مريم فكانت صبية جميلة هادئة تشاطر والدتها الاتعاب وتساهمها اعمال البيت

ففي تلك الليلة المخيفة التي وصفناها كانت راحيل

وابنتها جالستين بقرب موقد قد تغلب البرد على حرارته واكتنف الرماد جمره ، وفوق رأسيهما سراج ضعيف يبعث اشعته الصفراء الضئيلة الى قلب الظلمة مثلما تبعث الصلاة اشباح التعزية الى كبد الفقير الحزين

انتصف الليل والمرأتان جالستان تسمعان ولولة الارياح خارجاً ومن وقت الى آخر كانت الصبية تقف وتفتح الكوة الصغيرة وتنظر نحو الفضاء المظلم ثم تعود الى مكانها مضطربة مرتعبة من غضب العناصر

في تلك الدقيقة تحركت الصبية فجأة كأنها استيقظت من سبات نوم عميق والتفتت بوجل نحو امها وقالت بسرعة: هل سمعت يا اماه . هل سمعت صوت صارخ مستغيث

فرفعت الوالدة رأسها واصغت هنيهة ثم اجابت: لا لم اسمع سوى عويل الارياح يا ابنتي .

فقالت الصبية: انا قد سمعت صوتاً اعمق من هزيم الريح وامر من عويل العاصفة

قالت هذه الكلمات وانتصبت واقفة وفتحت الكوة واصغت دقيقة ثم قالت: قدسمعت الصراخ ثانية يا اماه .

فاجابت الام وقد اسرعت مرتاعة نحو النافذة : وانا قد سمعت ايضاً ... تعالي نفتح الباب وننظر..اوصدي النافذة كيلا تطفىء الريح السراج .

قالت هذا والتفت برداء طويل وفتحت الباب وخرجت بقدم ثابتة وبقيت مريم واقفةفي الباب والهواء يتلاعب بجدائل شعرها

مشت راحيل بضع خطوات فالحة الثلج بقدميها ثم وقفت ونادت : من الصارخ — اين المستغيث . فلم يجبها احد ثم رددت كلماتها هذه ثانية وثالثة واذ لم تسمع غير صراخ الزوبعة تقدمت الى الامام بشجاعة متلفتة الى كل ناحية حاجبة وجهها من تموجات الريح العنيفة . ولم تسر رمية سهم حتى رأت اثر اقدام غارقة في الثلج قد اوشكت الارياح ان تمحوها فاتبعتها بسرعة جازع مترقب وبعد هنيهة نظرت فرأت امامها جسداً مطروحاً على الثلج كرقعة سوداء على ثوب ناصع البياض . فتقدمت وذرت الثلج عنه واسندت رأسه على ركبتيها ووضعت يدها على صدره واذشعرت بنبضات قلبه المتهاونة التفتت نحو الكوخ

وصرخت قائلة: هلمي يا مريم هلمي الى معونتي فقد وجدته .

فخرجت مريم من البيت متبعة اثر أقدام والدتها مرتعشة من البرد والخوف حتى اذا ما بلغت المكان ورأت الشاب الملقى بلا حراك على الثلج تأوهت وصرخت بلهفة وتوجع ، فقالت الام وقد وضعت يديها تحت ابطيه: هو حي فلا تخافي بل امسكي باطراف اثوابه وتعالي نحمله الى البيت .

حملت المرأتان الفتى والارياح الشديدة تصدهما والثلوج تتمسك باقدامها حتى اذا ما بلغتا به الكوخ القتاه بجانب الموقد واخذت الام تفرك اعضاءه المتجلدة والابنة تجفف باطراف ثوبها شعره البليل واصابعه الباردة. فلم تمر بضع دقائق حتى عادت اليه الحياة فتحرك قليلاً وارتعشت اجفانه وتنهد تنهيدة عميقة بعثت الامل بنجاته في قلبي المرأتين الشفوقتين . فقالت مريم بعد ان حلت سيور حذائه المهشم وخلعت عباءته البليلة : انظري يا اماه انظري ملابسه فهي شبيهة باثواب الرهبان . فالتفتت راحيل وقد وضعت في الموقد غمراً من القضبان اليابسة

وقالت مستغربة : ان الرهبان لا يخرجون من الدير في مثل هذه الليلة المخيفة فاي شيء يا ترى جعل هذا المسكين يخاطر بحياته ؟ .

فقالت الصبية مستدركة : ولكن هو امرد يا اماه وللرهبان لحى كثيفة . فنظرت اليه الوالدة وقد انسكبت الرأفة الوالدية من عينيها وقالت متنهدة : جففي قدميه جيداً يا ابنتي راهباً كان ام مجرماً .

وفتحت راحيل الخزانة الخشبيةواخرجت منها جرة صغيرة مملوءة خمراً وسكبت منها في اناء من الفخار ثم قالت لابنتها : اسندي رأسه يا مريم لنجرعه قليلًا من الخمر فينتعش وتعود الحرارة ألى جسده .

قربت راحيل حافة الطاس الى شفتي الشاب وجرعته قليلًا ففتح عينيه الكبيرتين ونظر الى منقذيه لاول مرة نظرة لطيفة محزنة قد انبعثت مع دموع الشكر ومعرفة الجميل — نظرة من شعر بملامس الحياة بعد أن كان بين مخالب الموت — نظرة الامل بعد اليأس . ثم ألوى عنقه وخرجت هذه الكلمات من بين شفتيه المرتعشتين :

ليبار كما الله .

فقالت راحيل وقد وضعت يدها على كتفه : لا ترعج نفسك بالكلام يا اخي بل ابق صامتاً حتى تعود اليك القوة .

وقالت مريم : اتكىء يا اخي الى هذا المسند واقترب قليلاً من الموقد .

فاتكأ الشاب متنهداً وبعد دقيقة ملأت راحيل الطاس خمراً وسقته ثانية ثم التفتت نحو ابنتها وقالت : ضعي جبته بقرب النار لتجف . ففعلت مريم ثم جلست تنظر اليه بحنو وشفقة كأنها تريد ان تبث بنظراتها الحرارة والقوة في جسده النحيل

واحضرت راحيل اذ ذاك رغيفين من الخبز وقصعة مملوءة دبساً وطبقاً عليه بعض الثمار المجففة وجلست بجانبه تطعمه بيدها لقماً صغيرة مثلما تفعل الام وطفلها . حتى اذا اكتفى من الطعام وشعر بشيء من النشاط استوى جالساً على البساط فانعكست اشعة النار الوردية على وجهه المصفر وتلمعت عيناه الحزينتان ثم قال هازاً رأسه بهدوء : الرحمة

والقساوة تتصارعان في القلب البشري مثلما تتحارب العناصر في فضاء هذه الليلة المظلمة ولكن سوف تتغلب الرحمة على القساوة لانها الهية وسوف تمر مخاوف هذه الليلة بمجيء النهار . وسكت الشاب دقيقة ثم زاد بصوت منخفض يكاد لا يسمع : يد بشرية دفعتني الى الهوان ويد بشرية خلصتني فما اشد قساوة الانسان وما اكثر رأفته .

فقالت راحيل بصوت تمتزج بمقاطعه عاطفة الامومة بعذوبة الطمأنينة : كيف تجرأت يا اخي وتركت الدير في هذه الليلة التي تخافها الذئاب وتنزوي بالكهوف وتهابها العقبان فتختبىء بين الصخور .

فاغمض الشاب عينيه كأنه يريد ان يعيد بأجفانه الدموع الى اعماق قلبه ثم قال : للثعالب اوجرة ولطيور السماء اوكار ، واما ابن الانسان فليس له ان يسند رأسه .

فقالت راحيل : هكذا قال يسوع الناصري عن نفسه عندما طلب اليه احد الكتبة ان يتبعه الى حيث يذهب .

فاجاب الشاب : وهكذا يقول كل من يريد ان يتبع الروح والحق في هذا الجيل المملوء بالكذب والرياء والفساد .

فسكتت راحيل مفكرة بمعنى كلماته ثم قالت بشيء من التردد : ولكن في الدير غرف عديدة رحبة ، وخزائن طافحة بالذهب والفضة ، واقبية مملوءة بالغلة والخمور ، وزرائب غاصة بالعجول والكبوش المسمنة ، فأي امر جعلك تترك جميع هذه الاشياء وتخرج في مثل هذه الليلة ؟ .

فقال الشاب متنهداً : قد تركت جميع هذه الاشياء وخرجت كرهاً من الدير .

فقالت راحيل : ان الراهب في الدير نظير الجندي في ساحة الحرب يزجره رئيسه فينحني صامتاً ويأمره فيطيع مسرعاً . وقد سمعت بان الرجل لا يصير راهباً الا اذا نزع عنه الارادة والفكر والميل وكل ما يختص بالنفس ، ولكن الرئيس الصالح لا يطلب من مرؤوسيه فوق طاقتهم فكيف يطلب منك رئيس دير قزحيا ان تسلم حياتك الى العواصف والثلوج ؟ .

فاجاب الشاب : ان الرجل لا يصير راهباً في عرف رئيسه الا اذا كان مثل آلة عمياء خرساء فاقدة الحس والقوة . اما أنا فقد خرجت من الدير لانني لست آلة عمياء

بل انسان يرى ويسمع .

فاحدقت به راحيل ومريم كأنهما قد رأتا في وجهه سراً خفياً يريد كتمانه ، وبعد هنيهة قالت الوالدة مستغربة: أيخرج الانسان الذي يرى ويسمع في مثل هذه الليلة التي تعمي العيون وتصم الآذان ؟

فتنهد الشاب وأحنى رأسه على صدره وقال بصوت عميق : خرجت مطروداً من الدير .

فقالت راحيل بدهشة : مطروداً ! ؟

ورددت مريم هذه الكلمة متأوهة

فرفع الشاب رأسه وقد ندم على اظهاره الحقيقة للمرأتين وخاف ان تتحول رأفتهما عليه الى استياء واستهجان ولكنه نظر فرأى في عينيهما اشعة الشفقة متموجة مع محبة الاستطلاع فقال بصوت مخنوق: نعم خرجت مطروداً من الدير لانني لم استطع ان احفر قبري بيدي لان قلبي قد تعب في داخلي من متابعة الكذب والرياء . لان نفسي ابت ان تتنعم باموال الفقراء والمساكين . لان روحي قد امتنعت عن التلذذ بخيرات الشعب المستسلم الى الغباوة.

خرجت مطروداً لان جسدي لم يعد يجد راحة في الغرف الرحبة التي بناها سكان الاكواخ . لان خوفي لم يعد يقبل الخبز المعجون بدموع اليتيم والارملة . لان لساني لم يعد يتحرك بالصلاة التي يبيعها الرئيس باموال المؤمنين والبسطاء . خرجت مطروداً كالابرص القذر لانني رددت على مسامع القسس والرهبان آيات الكتاب الذي جعلهم قسساً ورهبانا .

وسكت الشاب وظلت راحيل ومريم ناظرتين اليه مستغربتين كلامه محدقتين بوجهه الجميل الحزين متلفتتين بين الآونة والاخرى الى بعضهما كأنهما تتساءلان بالسكينة عن الاسباب الغريبة التي جاءت به اليهما . حتى اذا ما نمت محبة الاستقصاء في قلب الوالدة نظرت اليه بانعطاف وسألته قائلة : اين ابوك وامك يا اخي هل هما حيان ؟ .

فاجاب الشاب والغصات الموجعة تقطع الفاظه : ليس لي اب ولا ام ولا اخت ولا مسقط رأس .

فتنهدت راحيل متأثرة وحولت مريم وجهها نحو الحائط لتخفي دمعة محرقة استقطرتها الشفقة من اجفانها . فنظر

اليهما الشاب نظرة المغلوب الى منجده وقد انتعشت نفسه برقة عواطفهما مثلما تنتعش الزهرة النابتة بين الصخور عندما يسكب الصباح قطرات الندى في قلبها . ثم رفع رأسه وقال : مات ابي وأمي قبل ان ابلغ السابعة من عمري فاخذني كاهن القرية التي ولدت فيها الى دير قزحيا فسر الرهبان بي وجعلوني راعياً للبقر ولما بلغت الخامسة عشرة ألبسوني هذا الثوب الاسود الخشن واوقفوني امام المذبح قائلين : اقسم بالله وقديسيه بانك قد نذرت الفقر والطاعة والعفة . فرددت كلامهم قبل أن أفهم مفاد كلامهم ، وقبل ان ادرك معاني الفقر والطاعة والعفاف ، وقبل ان ارى السبيل الضيقة التي سيروني عليها . كان اسمي خليلا فصار الرهبان منذ ذلك الحين يدعونني الاخ مبارك ولكنهم لم يعاملوني قط كأخ لهم . كانوا يتنعمون باللحوم والمآكل الشهية ويطعمونني الخبز اليابس والبقول المجففة ويتلذذون بالخمور والمشارب الطيبة ويسقونني الماء ممزوجاً بالدموع ويتضجعون على الاسرة الناعمة وينيمونني على فراش حجري في غرفة مظلمة باردة بجانب

زرائب الخنازير فكنت اقول في نفسي : متى اصير راهباً يا ترى فاشارك هؤلاء السعداء بغبطتهم ، واصبح خليقاً بملذاتهم ومسراتهم فلا تقطع قلبي رائحة الطعام ، ولا تعذب كبدي ألوان الخمور ، ولا ترتعش روحي لصوت الرئيس. ولكن باطلًا كنت اتمنى وأحلم لانني بقيت ارعى البقر في البرية وانقل الحجارة الثقيلة على ظهري واحفر التراب بساعدي ــ بقيت افعل كل ذلك لبقاء الخبز الدني والمأوى الضيق لانني لم اكن اعلم بانه يوجد مكان غير الدير يمكن ان اعيش فيه لانهم علموني الكفر بكل شيء الا معيشتهم. وسمموا نفسي بنقيع اليأس والاستسلام حتى ظننت بان هذا العالم هو بحر احزان وشقاء وان الدير هو ميناء الخلاص

واستوى خليل جالساً وانبسطت ملامحه المنقبضة ونظر كأنه رأى شيئاً جميلًا منتصباً امامه في ذلك الكوخ . اما راحيل ومريم فلبثتا صامتتين محدقتين به وبعد هنيهة عاد فقال : ان السماء التي شاءت فاخذت والديّ ونفتني يتيماً الى الدير لم تشأ ان اصرف العمر كله كالاعمى السائر في المعابر الخطرة ، ولم ترض بان اكون عبداً تعساً متصاغراً

الى نهاية الحياة، ففتحت عينيّ واذنيّ وارتني النور مشمشعاً واسمعتني الحقيقة متكلمة

فهزت راحيل رأسها اذ ذاك وقالت : أيوجد نور غير النور الذي تسكبه الشمس على جميع الناس . وهل بامكان البشر ان يعرفوا الحقيقة ؟

فاجاب خليل قائلًا : النور الحقيقي هو ذاك الذي ينبثق من داخل الانسان ، ويبين سرائر النفس للنفس ويجعلها فارحة بالحياة مترنمة باسم الروح . اما الحقيقة فهي كالنجوم لا تبدو الا من وراء ظلمة الليل . الحقيقة هي مثل جميع الاشياء الجميلة في هذا العالم لا تظهر مفاعليها المستحبة الا لمن شعر بتأثيرات البطل القاسية . الحقيقة هي تلك العاطفة الخفية التي تعلمنا ان نفرح بايامنا وتجعلنا نتمنى ذلك الفرح نفسه لجميع الناس

فقالت راحيل : كثار هم الذين يعيشون حسب العاطفة الخفية الكائنة في قلوبهم ، و كثار هم الذين يعتقدون بان هذه العاطفة هي ظل الناموس الذي سنه الله للانسان . ولكنهم لا يفرحون قط بايامهم بل يظلون تعساء حتى الموت .

فاجابها خليل قائلاً : باطلة هي الاعتقادات والتعاليم التي تجعل الانسان تعساً في حياته . و كذابة هي العواطف التي تقوده الى اليأس والحزن والشقاء . لان واجب الانسان ان يكون سعيداً على الارض وان يعلم سبل السعادة ويكرز باسمها اينما كان . ومن لا يشاهد ملكوت السموات في هذه الحياة لن يراه في الحياة الاتية . لاننا لم نجيء هذا العالم كالمنفيين المرذولين بل جئنا كالاطفال الاغبياء لكي نتعلم من محاسن الحياة واسرارها عبادة الروح الكلي الخالد واستطلاع خفايا نفوسنا . هذه هي الحقيقة التي عرفتها عند ما قرأت تعاليم يسوع الناصري وهذا هو النور الذي انبثق من داخلي وابان لي الدير ومن فيه كهوة مظلمة تنبعث من اعماقها الاشباح المخيفة لتميتني . هذا هو السر الخفي الذي اعلنته البرية الجميلة لنفسي عندما كنت اجلس جائعاً باكياً متأوهاً في ظل الاشجار . ففي يوم وقد سكرت نفسي من هذه الخمرة السماوية تشجعت ووقفت بين الرهبان اذ كانوا جالسين في حديقة الدير مثلما تربض البهائم المتخومة واخذت ابين لهم افكاري

واتلو على مسامعهم آيات الكتاب التي تبين ضلالهم وكفرهم . قلت لهم : لماذا نصرف الايام في هذه الخلوة متمتعين بخيرات الفقراء والمساكين مستطيبين الخبز المعجون بعرق جبينهم ودموع اجفانهم متلذذين بغلة الارض المسلوبة منهم — لماذا نعيش في ظلال التواني والكسل مبتعدين عن الشعب المحتاج الى المعرفة حارمين البلاد قوى نفوسنا وعزم سواعدنا . ان يسوع الناصري قد بعثكم كالخراف بين الذئاب فأي تعاليم جعلتكم تصيرون كالذئاب بين الخراف ؟ لماذا تبتعدون عن البشر وقد خلقكم الله بشراً . اذا كنتم افضل من الناس السائرين في موكب الحياة عليكم ان تذهبوا اليهم وتعلموهم وان كانوا افضل منكم ، امتزجوا بهم وتعلموا . . . كيف تنذرون الفقر وتعيشون كالامراء وتنذرون الطاعة وتتمردون على الانجيل وتنذرون العفة وقلوبكم مفعمة بالشهوات . . . انتم تتظاهرون بقتل اجسادكم ولكنكم لا تقتلون غير نفوسكم . وتتظاهرون بالترفع عن العالميات وانتم اكثر الناس طمعاً . وتتظاهرون بالتنسك والتقشف وانتم

كالبهائم المشغولة عن المعرفة بطيب المرعى . تعالوا نعيد اراضي الدير الوسيعة الى سكان هذه القرى المحتاجين ونرجع الى جيوبهم الاموال التي اخذناها ، تعالوا نتفرق الى كل ناحية مثلما تتفرق اسراب الطيور فنخدم الشعب الضعيف الذي جعلنا اقوياء ، ونصلح البلاد التي نعيش بخيراتها ، ونعلم هذه الامة التعسة ان تبتسم لنور الشمس وتفرح بمواهب السماء ومجد الحياة والحرية . لان المتاعب التي نجدها بين الناس هي اجل واجمل من الراحة التي نستسلم اليها في هذا المكان ، والرأفة التي نلامس بها قلب القريب هي اسمى من الفضيلة المختبئة في قراني الدير ، وكلمة التعزية التي نقولها على مسامع الضعيف والمجرم والساقطة هي اشرف من الصلاة الطويلة التي نرددها في الهيكل .

وسكت خليل دقيقة مسترجعاً انفاسه ثم رفع عينيه نحو راحيل ومريم وقال بصوت هادىء :

كنت اتكلم بهذه الاشياء وما يشابهها امام الرهبان وهم سامعون ودلائل الاستغراب بادية على وجوههم كأنهم لم يصدقوا بان فتىً مثلي يقف بينهم ويتكلم متجاسراً

بمثل هذا الكلام حتى اذا ما انتهيت اقترب احدهم وقال صارفاً أسنانه : أتتجرأ ايها الضعيف وتتلفظ امامنا بمثل هذا الكلام . واقترب آخر وقال ضاحكاً مستهزئاً : هل تعلمت هذه الحكمة من البقر والخنازير التي رافقتها كل ايام حياتك ؟ وجاء آخر وقال متوعداً : سوف ترى ما يحل بك ايها الخبيث الكافر . ثم تفرقوا عني الى كل ناحية مثلما يبتعد الاصحاء عن الابرص . وذهب بعضهم وشكوني الى الرئيس فاستدعاني عند غروب الشمس وبعد ان وبخني بقساوة على مسمع من الرهبان المبتهجين امر بجلدي فجلدت بسياط من المرس ، ثم حكم بسجني شهراً كاملاً، فاقتادني الرهبان متقهقهين فرحين الى غرفة رطبة مظلمة... انقضى الشهر وانا مطروح في ذلك القبر لا أرى النور ولا اشعر بغير دبيب الحشرات ولا المس سوى التراب ولا اعرف نهاية الليل من بدء النهار ولا اسمع سوى وطء اقدام احد الرهبان عندما يجيء ويضع بقربي كسرة من الخبز اليابس العطن وطاساً من الماء الممزوج بالخل . ولما خرجت من ذلك السجن ورأى الرهبان نحول جسدي

واصفرار وجهي توهموا بان اميال نفسي قد ماتت في داخلي وانهم بالجوع والعطش والعذاب قد قتلوا العاطفة التي احياها الله في قلبي ... مرت الايام اثر الليالي وانا اجهد النفس مفكراً في ساعات انفرادي بما يجعل اولئك الرهبان يرون النور ويسمعون نغمة الحياة . ولكن باطلاً كنت افتكر وافتكر ، لان الغشاء الكثيف الذي حاكته الاجيال الطويلة على بصائرهم لا تمزقه الايام القليلة . والطينة التي طلت بها الغباوة آذانهم قد تحجرت فلا تزيلها ملامس الاصابع الناعمة .

وبعد سكينة مملوءة بالتنهدات رفعت مريم رأسها والتفتت نحو والدتها كأنها تستأذنها بالكلام ثم نظرت بكآبة نحو خليل وسألته قائلة : هل عدت وتكلمت ثانية امام الرهبان فطردوك من الدير في هذه الليلة المخيفة التي تعلم الانسان ان يكون رؤوفاً ورفوقاً حتى باعدائه ! .

فقال الشاب : في هذا المساء عندما تعاظم هول العاصفة وابتدأت العناصر تتحارب في الفضاء جلست منفرداً عن الرهبان المستدفئين حول النار والمشغولين بسرد الحوادث

والحكايات المضحكة وفتحت الانجيل متأملاً بتلك الاقوال التي تستميل النفس وتنسيها غضب الطبيعة وقساوة العناصر . ولما رآني الرهبان بعيداً عنهم اتخذوا انفرادي سبباً للسخرية بي ، فجاء بعضهم ووقفوا بقربي واخذوا يتغامزون ويضحكون ويشيرون نحوي مستهزئين ، فلم احفل بهم بل اطبقت الكتاب وبقيت ناظراً من النافذة . فتململوا لذلك غيظاً ونظروا اليّ شزراً لان سكوتي قد أيبس عواطفهم ثم قال احدهم ساخراً : ماذا تقرأ ايها المصلح العظيم ؟ فلم ارفع عيني نحو المتكلم بل فتحت الانجيل وقرأت منه بصوت عال هذه الآية : وكان يقول للجموع الذين خرجوا ليعتمدوا منه يا اولاد الافاعي من اراكم ان تهربوا من الغضب الآتي فاصنعوا اثماراً تليق بالتوبة ولا تبتدئوا تقولون في نفوسكم ان لنا ابراهيم اباً لاني أقول لكم ان الله قادر على ان يقيم من هذه الحجارة اولاداً لابراهيم . والان وقد وضعت الفاس على اصل الشجرة فكل شجرة لا تعطي ثمراً جيداً تقطع وتلقى في النار . وسأله الجموع قائلين فماذا نفعل فاجاب وقال لهم : من له ثوبان فليعط من ليس له ومن له

طعام فليفعل هكذا . عندما قرأت هذه الكلمات التي قالها
يوحنا المعمدان سكت الرهبان دقيقة كأن يداً خفية قد
قبضت على ارواحهم ولكنهم عادوا وقهقهوا ضاحكين
ثم قال احدهم : قد قرأنا هذا الكلام مرات عديدة ولسنا
نحتاج لرعاة البقر ان يرددوه على مسامعنا . فقلت : لو كنتم
تقرأون هذه الايات وتفهمونها لما كان سكان هذه القرى
المغمورة بالثلوج يتأففون برداً ويتضورون جوعاً وانتم ههنا
تتمتعون بخيراتهم وتشربون عصير كرومهم وتأكلون لحوم
مواشيهم ... لم تخرج هذه الالفاظ من بين شفتيّ حتى
صفعني احد الرهبان على وجهي كأني لم اتكلم بغير الحماقة ،
ثم رفسني آخر برجله وآخر انتزع الكتاب من يدي وآخر
نادى الرئيس فجاء مسرعاً واذ اخبروه بما جرى تعالت قامته
وزوى ما بين عينيه وارتجف غضباً وصرخ باعلى صوته:
اقبضوا على هذا الشرير المتمرد وجروه بعيداً عن الدير
ودعوا العناصر الغضوبة تعلمه الطاعة . اخرجوه الى الظلمة
الباردة لتفعل به الطبيعة مشيئة الله ثم اغسلوا اكفكم
خوفاً من سموم الكفر المتعلقة باثوابه وان عاد متضرعاً

متظاهراً بالتوبة لا تفتحوا له الابواب لان الافعى اذا سجنت في القفص لا تنقلب حمامة والعليقة اذا غرست في الكرم لا تثمر تيناً .

حينئذ قبض الرهبان عليّ وجروني بعنف الى خارج الدير وعادوا ضاحكين وقبل ان يوصدوا الابواب سمعت احدهم يقول ساخراً : كنت بالامس ملكاً و كانت رعيتك البقر والخنازير وقد خلعناك اليوم ايها المصلح لانك اسأت السياسة فاذهب الآن وكن ملكاً على الذئاب الجائعة والغربان المتطايرة وعلمها كيف يجب ان تعيش في كهوفها واوجرتها .

وتنهد خليل تنهيدة عميقة ثم حول وجهه ونظر الى النار المتأججة في الموقد . وبصوت جارح بحلاوته قال : هكذا طردت من الدير . وهكذا سلمني الرهبان الى يد الموت فسرت والضباب يحجب الطريق عن بصري والرياح الشديدة تمزق اثوابي والثلوج المتراكمة تتمسك بركابي حتى وهنت قواي فسقطت مستغيثاً صارخاً صراخ يائس شعر بأنه لا يوجد من يسمعه سوى الموت المخيف والاودية

المظلمة . ولكن من وراء الثلوج والارياح ، من وراء الظلمة والغيوم ، من وراء الاثير والكواكب ومن وراء كل شيء قوة هي كل معرفة وكل رحمة قد سمعت صراخي وندائي فلم تشأ ان اموت قبل ان اتعلم ما بقي من سرائر الحياة فبعثتكما الي لكي تسترجعاني من اعماق الهاوية والعدم.

وسكت الشاب والامرأتان تنظران اليه بانعطاف واعجاب وشفقة كأن نفسيهما قد فهمتا خفايا نفسه واشتركتا معها بالشعور والمعرفة. وبعد هنيهة مدت راحيل يدها قسر ارادتها ولمست يده بلطف وقالت والدموع تتلمع في عينيها : ان من تختاره السماء نصيراً للحق لا تفنيه المظالم ولا تميته الثلوج والعواصف .

وهمست مريم قائلة : ان العواصف والثلوج تفني الزهور ولكنها لا تميت بذورها .

فقال خليل وقد أنارت التعزية وجهه المصفر مثلما تنير أشعة الفجر خطوط الافق : ان كنتما لا تحسباني متمرداً وكافراً كما يحسبني الرهبان يكون الاضطهاد الذي لقيته في الدير رمز للشدة التي تعانيها الامة قبل بلوغها المعرفة .

وتكون هذه الليلة التي كادت تميتني شبيهة بالثورات التي تتقدم الحرية والمساواة . لان من قلب الامرأة الحساس تنبثق سعادة البشر ومن عواطف نفسها الشريفة تتولد عواطف نفوسهم .

قال هذا واتكأ على الوسادة فلم تشأ الامرأتان متابعة الحديث لانهما عرفتا من نظراته بان النعاس المتولد من الراحة والاستدفاء بعد عناء المسير قد راود عينيه

ولم تمر بضع دقائق حتى أغمض خليل أجفانه ونام كالطفل المستأمن على ذراعي أمه فقامت راحيل بهدوء واتبعتها مريم وجلستا على فراشهما تنظران اليه كأن في وجهه الذابل جاذبا يستميل روحيهما ويحيط بقلبيهما . ثم همست الوالدة كانها تتكلم مع نفسها وقالت في عينيه المطبقتين قوة غريبة تتكلم بالسكينة وتنبه أميال النفس .

وقالت الابنة : يداه يا أماه مثل يدي صورة يسوع الموجودة في الكنيسة .

فهمست الوالدة : على وجهه الكئيب ظاهرة رقة الامرأة وقوة الرجل .

وحملت أجنحة الكرى روحي الامرأتين الى عالم الاحلام وخمدت النار في الموقد وتحولت الى رماد ٠ ثم جف زيت السراج فشح نوره ببطء ثم انطفأ ٠ وظلت العاصفة الغضوب تضج خارجا والجو القاتم ينثر رقع الثلوج والارياح العنيفة تقذفها يمينا وشمالا

٤

مضى اسبوعان على تلك الليلة والفضاء المتلبد بالغيوم يسكن حيناً ثم يثور متهيجاً غامراً الاودية بالضباب مكفناً الطلول بالثلوج ٠ وقد هم خليل ثلاث مرات ان يتابع مسيره نحو الساحل فكانت راحيل تصده بلطف وانعطاف قائلة :

لا تسلم حياتك ثانية الى العناصر العمياء بل ابق ههنا يا اخي فالخبز الذي يشبع اثنين يكفي ثلاثة ، والنار في هذا الموقد تظل متقدة بعد ذهابك مثلما كانت قبله ٠ نحن فقراء يا اخي ولكنا نحيا امام وجه الشمس مثل جميع

الناس لان الله يعطينا خبزنا كفاف يومنا .

اما مريم فكانت ترجوه بنظراتها اللطيفة وتستعطفه بتنهداتها الهادئة لكي يمتنع عن الذهاب لانها منذ دخوله بين حي وميت ذلك البيت الحقير شعرب بوجود قوة علوية في نفسه تبعث الحياة والشعاع الى قلبها وتنبه عواطف جديدة مستحبة في قدس من اقداس روحها — لانها شعرت لاول مرة في حياتها بتلك الحاسة الغريبة التي تجعل قلب الصبية النقي مثل وردة بيضاء تشرب قطرات الندى وتسكب دقائق العطر

لا يوجد في داخل الانسان عاطفة انقى واعذب من تلك العاطفة الخفية التي تستفيق على حين غفلة في قلب الصبية وتملأ خلايا صدرها بالانغام السحرية وتجعل ايامها شبيهة باحلام الشعراء ولياليها مثل الانبياء . ولا يوجد بين اسرار الطبيعة سر أقوى واجمل من ذلك الميل الذي يحول سكينة نفس العذراء الى حراك مستمر يميت بعزمه ذكرى الايام الغابرة ويحيي بحلاوته الآمال بالايام الآتية والصبية اللبنانية تمتاز عن صبايا الامم بقوة عواطفها

ورقة احساسها لان التربية البسيطة التي تحرم عاقلتها من النمو وتوقف مدار كها عن الارتقاء تحول نفسها الى استفسار ميول نفسها وتشغل قلبها باستطلاع خفايا قلبها . الصبية اللبنانية مثل ينبوع يخرج من قلب الارض بين المنخفضات فلا يجد ممراً ليسير به نهراً نحو البحر فينقلب بحيرة هادئة تنعكس على وجهها اشعة القمر والنجوم

وشعر خليل بتموجات روح مريم حول روحه ، وعرف بان الشعلة المقدسة التي احاطت بقلبه قد لامست قلبها . ففرح لاول وهلة فرح طفل ضائع وجد امه ولكنه عاد فلام نفسه على تسرعها وانشغافها ظناً منه بان هذا التفاهم الروحي سيضمحل كالضباب عندما تفصله الايام عن تلك القرية فكان يناجي نفسه قائلاً : ما هذه الاسرار الخفية التي تتلاعب بنا ونحن غافلون — وما هذه النواميس التي تسيرنا تارة على سبل وعرة فنسير منقادين ، وتوقفنا طوراً امام وجه الشمس فنقف فرحين ، وتبلغنا مرة قمة الجبل فنبتسم متهللين وتهبط بنا اخرى الى اعماق الوادي فنصرخ متوجعين ؟ ما هذه الحياة التي تعانقنا يوماً كالحبيب ويوماً

تضعفنا كالعدو ؟ ألم أكن بالامس مكروهاً مضطهداً بين رهبان الدير ؟ او لم اقبل العذاب والسخرية من اجل هذه الحقيقة التي ايقظتها السماء في صدري ؟ او لم اقل للرهبان بان السعادة هي مشيئة الله في الانسان؟ اذاً ما هذا الخوف ولماذا اغمض عيني واحول وجهي عن النور المنبعث من عيني هذه الصبية ؟ انا مطرود وهي فقيرة ولكن أبالخبز وحده يحيا الانسان ؟ اوليست الحياة ديناً ووفاء . او لسنا بين العوز واليسر كالاشجار بين الشتاء والصيف؟ ولكن ماذا تقول راحيل اذا علمت بان روح الفتى المطرود من الدير وروح ابنتها الوحيدة قد تفاهمتا في السكينة واقتربتا من دائرة النور الاعلى ؟ وماذا تفعل ياترى اذا ما درت بان الشاب الذي خلصته من مخالب الموت يريد ان يكون رفيقاً لابنتها ؟ وماذا يقول سكان هذه القرية البسطاء اذا ما علموا ان فتى ربي في الدير وخرج منه مطروداً فجاء قريتهم لكي يعيش بقرب صبية جميلة ؟ افلا يغلقون آذانهم اذا ما قلت لهم بان الذي يغادر الدير ليعيش بينهم يكون كالطائر الذي يخرج من ظلمة القفص الى النور والحرية ؟

وماذا يقول الشيخ عباس العائش بين هؤلاء الفلاحين المساكين كالامير بين العبيد اذا ما سمع حكايتي ؟ وماذا يفعل كاهن القرية اذا ما رددوا على مسامعه تلك الاقوال التي سببت طردي من الدير ؟ .

كان خليل يناجي نفسه وهو جالس بقرب الموقد يتأمل بألسنة النار الشبيهة بعواطفه . أما مريم فكانت تختلس النظرات اليه وتقرأ أحلامه في ملامح وجهه وتسمع صدى أفكاره خارجا من صدره وتشعر بخيالات هواجسه متمايلة حول قلبه

ففي عشية يوم وقد وقف خليل بقرب الكوة المطلة نحو الوادي . حيث الاشجار والصخور الملتحفة بالثلوج التحاف الاموات بالاكفان . جاءت مريم ووقفت بجانبه ونظرت من الكوة الى الفضاء ، فالتفت نحوها واذ التقت عيناه بعينيها تنهد تنهيدة محرقة ثم حول وجهه وأغمض أجفانه كأن نفسه قد تركته وسبحت ساعية في أعماق اللانهاية باحثة عن كلمة تقولها

وبعد هنيهة تشجعت مريم وسألته قائلة : الى أي

مكان تذهب عندما تذوب هذه الثلوج وتنفتح الطرقات.

فاجابها وقد فتح عينيه الكبيرتين وأحدق بالافق البعيد : سوف اتبع الطريق الى حيث لا أعلم.

فارتعشت روح مريم ثم قالت متنهدة : لماذا لاتسكن في هذه القرية وتبقى قريباً منا . أليست الحياة هنا افضل من الغربة البعيدة .

فاجابها وقد اضطربت احشاؤه لرقة كلماتها ونغمة صوتها : ان سكان هذه القرية لايقبلون المطرود من الدير جاراً لهم ، ولا يسمحون له أن يتنفس الهواء الذي يحييهم ، لانهم يحسبون عدو الرهبان كافراً بالله وقديسيه .

فتأوهت مريم ولبثت ساكنة لان الحقيقة الجارحة قد اخرستها . حينئذ أسند خليل رأسه بيده وقال: ان سكان هذه القرى يامريم قد تعلموا من الرهبان والكهان بغض كل من يفتكر لذاته ، فصاروا يقلدونهم ويبتعدون مثلهم عن جميع الذين يريدون أن يصرفوا حياتهم فاحصين لاتابعين . فاذا بقيت في هذه القرية وقلت لسكانها تعالوا يا اخوتي نعبد ونصلي حسب مشيئة نفوسنا لا مثلما يريد

الرهبان والقسس ، لان الله لايريد أن يكون معبوداً من الجاهل الذي يقلد غيره ، يقولون هذا ملحديعاند السلطة التي وضعها الله في أيدي كهانه . وان قلت لهم اصغوا ياإخوتي واسمعوا صوت قلوبكم واعملوا ارادة الروح الكائنة في اعماقكم يقولون هذا شرير يريدنا ان نكفر بالوسائط التي أقامها الله بين السماء والارض .

ونظر خليل اذ ذاك الى عيني مريم وبصوت يحاكي رنين الاوتار الفضية قال : ولكن في هذه القرية يا مريم قوة سحرية تمتلكني وتتشبث بنفسي — قوة علوية قد أنستني اضطهاد الرهبان وحببت الي قساوتهم . في هذه القرية لقيت الموت وجهاً لوجه وفيها عانقت روحي روح الله . في هذه القرية زهرة نابتة بين الاشواك يستميل جمالها نفسي ويملأ عطرها كبدي فهل اترك هذه الزهرة وأذهب مبشراً بالمبادىء التي ابعدتني عن الدير ام ابقى بجانبها واحفر لافكاري واحلامي قبراً بين الاشواك المحيطة بها . ماذا افعل يا مريم ؟ .

سمعت مريم هذه الكلمات فاهتزت قامتها مثلما

ترتعش الزنبقة امام نسيم السحر ، وفاضت اشعة قلبها من مقلتيها فقالت والحياء يغالب لسانها : كلانا بين يدي قوة خفية عادلة رحومة فلندعها تفعل ما تشاء بنا .

منذ تلك الدقيقة تمازجت عواطف خليل بعواطف مريم وصارت نفساهما شعلة واحدة متقدة ينبعث منها النور ويتضوع حولها البخور

٥

منذ ابتداء الدهر الى ايامنا هذه والفئة المتمسكة بالشرف الموروث تتحالف وتتفق مع الكهان ورؤساء الاديان على الشعب . هي علة مزمنة قابضة باظافرها على عنق الجامعة البشرية ولن تزول الا بزوال الغباوة من هذا العالم عندما يصير عقل كل رجل ملكاً ويصبح قلب كل امرأة كاهناً

ابن الشرف الموروث يبني قصره من اجساد الفقراء الضعفاء . والكاهن يقيم الهيكل على قبور المؤمنين

المستسلمين .. الامير يقبض على ذراعي الفلاح المسكين والكاهن يمد يده الى جيبه .. الحاكم ينظر الى ابناء الحقول عابساً والمطران يلتفت نحوهم مبتسماً . وبين عبوسة النمر وابتسامة الذئب يفنى القطيع . الحاكم يدعي تمثيل الشريعة والكاهن يدعي تمثيل الدين وبين الاثنين تفنى الاجساد وتضمحل الارواح

وفي لبنان — ذلك الجبل الغني بنور الشمس الفقير الى نور المعرفة — قد اتحد الشريف والكاهن على الفقير الضعيف الذي يحرث الارض ويستغلها كيما يحمي جسده من سيف الاول ولعنة الثاني

ابن الشرف الموروث يقف في لبنان بجانب قصره ويصرخ باللبنانيين قائلًا : قد أقامني السلطان ولياً على اجسادكم . والكاهن ينتصب امام المذبح هاتفاً : قد اقامني الله وصياً على ارواحكم ، اما اللبنانيون فيظلون صامتين لان القلوب المغلفة بالتراب لا تنكسر ، لان الاموات لا يبكون

فالشيخ عباس الذي كان في تلك القرية ولياً وحاكماً

واميرا كان محباً لرهبان الدير، محافظاً على تعاليمهم وتقاليدهم، لانهم كانوا يشادركونه بقتل المعرفة واحياء الطاعة في نفوس حارثي حقوله و كرومه

ففي ذلك المساء — بينما كان خليل ومريم يقتربان من عرش الحب وراحيل تنظر اليهما بانعطاف مستطلعة خفايا نفسيهما — ذهب الخوري الياس كاهن القرية وأخبر الشيخ عباس بان الرهبان الاتقياء قد طردوا من الدير فتى متمرداً شريراً وان هذا الملحد الكافر قد جاء القرية منذ اسبوعين وهو الآن ساكن في بيت راحيل ارملة سمعان الرامي

ولم يكتف الخوري الياس بابلاغ الشيخ هذا الخبر بل زاد قائلاً : ان الشيطان الذي يطرد من الدير لا ينقلب ملاكاً في هذه القرية، والتينة التي يقطعها رب الحقل ويلقيها في النار لا تعطي ثماراً جيدة وهي في الموقد . فان كنا نريد ان تبقى هذه القرية سالمة من جراثيم العلل الخبيثة علينا ان نطرد هذا الشاب من منازلنا وحقولنا مثلما طرده الرهبان من الدير .

فسأله الشيخ عباس قائلاً : وكيف عرفت بأن هذا الشاب سيكون في هذه القرية كالعلة الخبيثة؟ أليس أفضل ان نبقيه عندنا ونجعله ناطوراً للكروم أو راعياً للبقر ؟ نحن بحاجة ماسة الى العمال فاذا جلبت لنا الطريق فتى قوي الساعدين نسترضيه ولا نتركه .

فابتسم الكاهن تلك الابتسامة الشبيهة بملامس الافعى ثم قال ممشطاً لحيته الكثيفة باصابعه : لو كان هذا الشاب صالحاً للعمل لما طرده الرهبان لان اراضي الدير وسيعة وقطعانه لا تحصى . وقد اخبرني مكاري الدير الذي بات عندي ليلة امس بان هذا الشاب كان يردد على مسامع الرهبان آيات الكفر مقرونة بالفاظ ثورية تدل على طيشه وخباثته ، فقد تجاسر مرات عديدة وخطب فيهم قائلاً : ارجعوا حقول الدير وكرومه وامواله الى سكان هذه القرى الفقراء وتفرقوا الى كل ناحية وذلك خير من الصلاة والعبادة . واخبرني المكاري ايضاً بان قساوة التوبيخ واوجاع الجلد بالسياط وظلمة السجن لم تعد لهذا الكافر صوابه بل كانت تغذي الشيطان القابض على نفسه مثلما

تكثر اوساخ المزابل عدد الحشرات .

فانتصب الشيخ عباس على قدميه ونظير نمر يتراجع قليلًا الى الوراء قبيل الوثوب بقي ساكتاً هنيهة يصر اسنانه وينتفض غيظاً . ثم مشى نحو باب القاعة ونادى خدامه بصوت عال فجاء ثلاثة منهم ووقفوا امامه مستطلعين امره ، فخاطبهم قائلًا : في بيت راحيل الارملة شاب مجرم يرتدي أثواب راهب فاذهبوا الآن وقودوه اليّ مكتوفاً وان قاومتكم تلك المرأة اقبضوا عليها وجروها على الثلج بجدائل شعرها لان من يساعد الشرير يكون شريراً .

فاحنى الخدام رؤوسهم وخرجوا مسرعين ليتمموا مشيئة سيدهم ، وبقي الشيخ عباس والكاهن يتحدثان عما يجب ان يفعلاه بالشاب المطرود وراحيل الارملة .

٦

توارى النهار وقدم الليل ناشراً خيالاته بين تلك الاكواخ المكتنفة بالثلوج . وظهرت النجوم في ذلك

الفضاء المظلم البارد ظهور الامل بالخلود من وراء اوجاع النزع والموت . فاوصد الفلاحون الابواب والنوافذ واشعلوا السراج وجلسوا يصطلون بقرب الموقد غير حافلين باشباح الليل السائرة حول بيوتهم

في تلك الساعة بينما كانت راحيل وابنتها مريم وخليل جالسين حول مائدة خشبية يتناولون العشاء طرق الباب ودخل عليهم خدام الشيخ عباس ، فالتفتت راحيل مذعورة وشهقت مريم مرتاعة ، اما خليل فلبث هادئاً كأن نفسه الكبيرة قد تنبأت وعلمت بمجيء هؤلاء الرجال قبيل مجيئهم . فاقترب احد الخدام والقى يده بعنف على كتف خليل وقال بصوت اجش : ألست انت الشاب المطرود من الدير ؟ فاجابه خليل ببطء : انا هو فماذا تريدون ؟.

فقال الرجل : نريد ان نسير بك مكتوفاً الى منزل الشيخ عباس وان ابديت ممانعة نجرك على الثلج كالخروف المذبوح .

فانتصبت راحيل وقد اصفر وجهها وتجمدت جبهتها وقالت بصوت مرتجف : اي ذنب اتاه امام الشيخ عباس

ولماذا تريدون جره مكتوفاً ؟

وقالت مريم ونغمة الرجاء والاستعطاف تمازج صوتها : هو فرد وانتم ثلاثة فمن الجبانة ان تتحالفوا على اذلاله وتعذيبه.

فصرخ الخادم وقد حمي غضبه : أيوجد في هذه القرية امرأة تعارض مشيئة الشيخ عباس ؟ قال هذا وانتشل من وسطه حبلاً متيناً وهم ليوثق به كتفي خليل . فوقف الشاب ولم تتغير ملامحه بل ظل رأسه مرفوعاً كالبرج أمام الزوبعة وسالت على شفتيه ابتسامة محزنة ثم قال : انا اشفق عليكم ايها الرجال لانكم آلة قوية عمياء في يد مبصر ضعيف يظلمكم ويسحق الضعفاء بسواعدكم . انتم عبيد الغباوة والغباوة هي اشد اسوداداً من بشرة الزنوج، واكثر استسلاماً للحيف والقساوة : كنت بالامس مثلكم ايها الرجال وغداً تصيرون مثلي ، اما الآن فبيننا هوة عميقة مظلمة تمتص ندائي وتحجب حقيقتي عنكم فلا تسمعون ولا تبصرون ، ها أنذا فشدوا ساعدي وافعلوا بي ما شئتم.

سمع الرجال هذا الكلام فجمدت عيونهم واقشعرت ابدانهم وبهتوا بالشاب هنيهة كأن عذوبة صوته قد انتزعت

الحركة من اجسادهم وايقظت الميول العلوية الهاجعة في اعماق قلوبهم ، ولكنهم عادوا فانتبهوا كأن صدى صوت الشيخ عباس قد تململ في مسامعهم وذكرهم بالمهمة التي بعثهم من اجلها فتقدموا واوثقوا ساعدي الشاب، وخرجوا به ساكتين شاعرين بشيء من الالم بين تلافيف ضمائرهم. فاتبعتهم راحيل ومريم ، ونظير بنات اورشليم عندما اتبعن يسوع الى الجلجلة سارتا خلف خليل نحو منزل الشيخ عباس .

٧

ان الاخبار ، كبيرة كانت أم تافهة ، تنتقل بسرعة الفكر بين الفلاحين في القرى الصغيرة ، لان بعدهم عن مشاغل الاجتماع المتتابعة يجعلهم أن ينصرفوا بكليتهم الى استقصاء ما يحدث في محيطهم المحدود . وفي أيام الشتاء عندما تكون الحقول والبساتين راقدة تحت لحف الثلوج وتنزوي الحياة خائفة مستدفئة حول المواقد يصير القرويون أشد رغبة وأكثر ميلا الى استطلاع الاخبار لكي يلهوا

بتأثيراتها أيامهم الفارغة ويصرفوا باستفسارها لياليهم الباردة

وهكذا لم يقبض خدام الشيخ عباس على خليل في تلك الليلة حتى انتشر الخبر كالعدوى بين سكان تلك القرية ، وأثارت محبة الاستفهام نفوسهم ، فتركوا أكواخهم وتراكضوا مسرعين من كل ناحية كالجنود المتفرقين ، فلم يبلغ الشاب المكتوف منزل الشيخ حتى اجتمع في تلك الدار الوسيعة الرجال و النساء والصبيان وكلهم يمدون اعناقهم بتشوق ليحظوا بنظرة من الكافر المطرود من الدير ومن راحيل الارملة وابنتها مريم اللتين شاركتا الارواح الشريرة على بث السموم والعلل الجهنمية في فضاء قريتهم

جلس الشيخ عباس على مقعد عال وتربع بجانبه الخوري الياس ووقف الفلاحون والخدام مترقبين محدقين بالفتى المكتوف الواقف بينهم برأس مرفوع وقوف الطود بين المنخفضات ، أما راحيل ومريم فكانتا واقفتين خلفه والخوف يراود قلبيهما ونظرات القوم القاسية تعذب نفسيهما ، ولكن ماذا يفعل الخوف في عواطف امرأة رأت الحق فاتبعته

وماذا تفعل النظرات القاسية في فؤاد صبية سمعت نداء الحب فاستيقظت؟

ونظر الشيخ عباس إذ ذاك نحو الشاب وبصوت يشابه ضجيج الامواج سأله قائلا : ما اسمك أيها الرجل ؟

فاجابه : اسمي خليل . فقال الشيخ : من هم اهلك وذووك واين مسقط رأسك؟

فالتفت خليل نحو الفلاحين الناظرين اليه بكره واشمئزاز وقال: الفقرا .والمساكين المظلومون هم أهلي وعشيرتي. وهذه البلاد الوسيعة هي مسقط رأسي .

فابتسم الشيخ عباس مستهزئاً ثم قال : ان الذين تنتسب اليهم يطلبون معاقبتك والبلاد التي تدعيها وطنك تأبى أن تكون من سكانها .

فقال خليل وقد اضطربت أحشاؤه :أن الشعوب الجاهلة تقبض على أشرف أبنائها وتسلمهم الى قساوة العتاة والظالمين . والبلاد المغمورة بالذل والهوان تضطهد محبيها ومخلصيها . ولكن أيترك الابن الصالح والدته اذا كانت مريضة وينكر الاخ الرؤوف أخاه اذا كان تعساً ؟ ان

هؤلاء المساكين الذين أسلموني اليك مكتوفاً اليوم هم الذين أسلموك رقابهم بالامس . والذين أوقفوني مهانا امامك هم الذين يزرعون حبات قلوبهم في حقولك ويهرقون دماء أجسادهم على أقدامك وهذه الارض التي تأبى أن أكون من سكانها هي الارض التي لاتفغر فاها وتبتلع الطغاة والطامعين

فقهقه الشيخ عباس ضاحكا كأنه يريد أن يغرق بضحكه القبيح روح الشاب ويوقفها عن المسير الى أرواح السامعين البسطاء ثم قال : أولم تكن راعيا لثيران الدير أيها الشاب الوقح فلماذا تركت رعيتك وخرجت مطروداً؟ هل ظننت أن الشعب يكون أكثر رأفة بالمجاذيب الملحدين من الرهبان الاتقياء ؟

فاجابه خليل : كنت راعيا ولم أكن جزاراً : كنت أقود العجول الى المروج الخضراء والمراعي الخصبة ولم أسر بها قط الى الطلول الجرداء . كنت أوردها الينابيع العذبة وأبعدها عن المستنقعات الفاسدة . كنت أعيدها في المساء الى الحظيرة ولم أتركها في الوادي فريسة للذئاب والضواري الخاطفة . هكذا كنت أفعل بالبهائم ولو فعلت أنت مثلي

بهذا القطيع المهزول الرابض الآن حولنا لما كنت تسكن هذا القصر الرفيع وتتركه يبيد جوعا في الاكواخ المظلمة ولو كنت ترحم أبناء الله المخلصين مثلما كنت أرحم عجول الدير لما كنت جالسا الآن على هذا المقعد الحريري وهم واقفون امامك وقوف القضبان العارية امام ريح الشمال.

فتحرك الشيخ عباس منزعجا ، وتلمعت على جبهته قطرة عرق باردة ، وتبدل ضحكه بالغضب ، ولكنه عاد فامتلك نفسه كيلا يظهر الاهتمام والاكتراث امام رجاله وتابعيه ثم قال مشيراً بيده : لم نأت بك مكتوفاً ايها الكافر لنسمع هذيانك ، بل احضرناك لكي نحاكمك كمجرم شرير ،فاعلم اذاً بأنك واقف الآن امام سيد هذه القرية وممثل ارادة الامير امين الشهابي ايده الله [١] وأمام الخوري الياس ممثل الكنيسة المقدسة التي كفرت بها . فدافع اذاً عن نفسك مما اتهمت به او فاركع مسترحماً نادماً امامنا وامام هذا الجمع الساخر بك ، فنغفر لك ونجعلك راعياً للبقر مثلما كنت في الدير.

---

١ الامير امين شهاب هو ابن الامير بشير الكبير وقد حكم الجبل بعد موت ابيه

فاجاب الشاب بهدوء : ان المجرم لا يحاكمه المجرمون والكافر الشرير لا يدافع عن نفسه أمام الخطاة .

قال هذه الكلمات والتفت نحو الجمع المزدحم في تلك القاعة الوسيعة وبصوت جهوري يشابه رنين الاجراس الفضية ناداهم قائلاً : ايها الاخوة ، ان الرجل الذي اقامه خضوعكم واستسلامكم سيداً على حقولكم قد احضرني مكتوفاً ليحاكمني امامكم في هذا القصر المبني فوق بقايا آبائكم وجدودكم ، والرجل الذي جعله ايمانكم كاهناً في كنيستكم قد جاءني ليدينني ويساعد على تعذيبي واذلالي . اما انتم فقد تراكضتم مسرعين من كل ناحية لكي تنظروني متألماً وتسمعوني مستغيثاً مسترحماً . قد تركتم جوانب المواقد الدافئة لتشاهدوا ابنكم واخاكم مكتوفاً مهاناً . قد اسرعتم لتروا الفريسة المتوجعة بين مخالب الكواسر . قد جئتم لتنظروا المجرم الكافر واقفاً امام القضاة . انا هو المجرم . انا هو الكافر الذي طرد من الدير فحملته العاصفة الى قريتكم . انا هو ذاك الشرير فاسمعوا احتجاجي ولا تكونوا مشفقين بل كونوا عادلين

لان الشفقة تجوز على المجرمين الضعفاء ، اما العدل فهو كل ما يطلبه الابرياء . قد اخترتكم قضاتي لان ارادة الشعب هي مشيئة الله ، فايقظوا قلوبكم واسمعوني جيداً ثم احكموا عليّ بما توحيه ضمائركم . قد قيل لكم اني رجل كافر شرير ولكنكم لم تعرفوا ماهي جريمتي . وقد رأيتموني مكتوفاً كاللص القاتل ولم تسمعوا بعد بذنوبي لان حقيقة الجرائم والذنوب في هذه البلاد تظل مستترة وراء الضباب ، اما العقاب فيظهر للناس ظهور اسياف البرق في ظلمة الليل . جريمتي ايها الرجال هي ادراكي تعاستكم وشعوري بثقل قيودكم . وآثامي ايتها النساء هي شفقتي عليكن وعلى اطفالكن الذين يمتصون الحياة من صدوركن ممزوجة بلهاث الموت . انا واحد منكم ايها الجمع وقد عاش آبائي وجدودي بين هذه الاودية التي تستفرغ قواكم وماتوا تحت هذا النير الذي يلوي اعناقكم . انا اؤمن بالله الذي يسمع نداء نفوسكم المتوجعة ويرى صدوركم المقروعة واؤمن بالكتاب الذي يجعلني ويجعلكم اخوة متساوين امام وجه الشمس . واؤمن بالتعاليم التي تحررني

وتحرركم من عبودية البشر وتوقفنا جميعاً بغير قيود على الارض موطىء اقدام الله . كنت في الدير راعياً للبقر لكن انفرادي مع البهائم الخرساء في البرية الساكنة لم يعمني عن المأساة الاليمة التي تمثلونها كرهاً في الحقول. ولم يصمّ اذني عن صراخ اليأس المتصاعد من قراني الاكواخ . قد نظرت فرأيتني في الدير ورأيتكم في الحقول كقطيع من النعاج سائر وراء ذئب خاطف الى وكره فوقفت في منتصف الطريق وصرخت مستغيثاً فهجم الذئب ونهشني بانيابه المحددة ، ثم احتال عليّ وابعدني كيلا يثير صراخي روح القطيع فيتمرد ويتفرق مذعوراً الى كل ناحية ويتركه منفرداً جائعاً في ظلام الليل.. قد احتملت السجن والجوع والعطش من اجل الحقيقة الجارحة التي رأيتها مكتوبة بالدماء على وجوهكم ، وقاسيت العذاب والجلد والسخرية لانني جعلت لسكينة تنهيداتكم صوتاً صارخاً متموجاً في خلايا الدير . ولكنني لم اخف قط ولم يضعف قلبي لان صراخكم الاليم كان يتبع نفسي ويجدد قواي ويحبب اليّ الاضطهاد والاحتقار والموت ..انتم

تسألون نفوسكم الآن قائلين : متى صرخنا متظلمين
واي فرد منا يتجاسر ان يفتح شفتيه؟ وانا اقول لكم ان
نفوسكم تصرخ متظلمة في كل يوم وقلوبكم تستغيث
متوجعة في كل ليلة ولكنكم لا تسمعون نفوسكم وقلوبكم
لان المنازع لا يسمع حشرجة صدره أما الجالسون بجانب
مضجعه فيسمعون . والطائر المذبوح يرقص متململا قسر
ارادته ولا يعلم ، أما الناظرون فيعلمون . . في أي ساعة
من النهار لا تتأوه ارواحكم متوجعة ؟ أفي الصباح عندما
تنهركم محبة البقاء وتمزق نقاب الكرى عن أجفانكم وتقودكم
كالعبيد الى الحقول؟ أم في الظهيرة عندما تتمنون الجلوس
في ظل الاشجار لكي تتقوا سهام الشمس المحرقة ولا
تستطيعون؟ أم في المساء عندما تعودون جائعين الى اكواخكم
ولا تجدون سوى الخبز اليابس والماء العكر ؟ أم في الليل
عندما تطرحكم المتاعب على الاسرة الحجرية فتنامون
قلقين ولا يكحل النعاس أجفانكم الا وتهبون خائفين
متوهمين صوت الشيخ يرن في آذانكم ؟ . . وفي اي فصل
من السنة لا تنندب قلوبكم متحسرة ؟ افي الربيع عندما

ترتدي الطبيعة حلة جديدة فتخرجون لمشاهدتها باطمار بالية ممزقة ؟ ام في الصيف عندما تحصدون الزرع وتجمعون الاغمار على البيادر وتملأون اهراء سيدكم الظلوم بالغلة ولا تحصلون لقاء اتعابكم على غير التبن والزوان ؟ ام في الخريف عندما تجنون الاثمار وتعصرون العنب ولا يكون نصيبكم منها سوى الخل والبلوط ؟ ام في الشتاء عندما يضطهدكم الفضاء ويطردكم البرد والزمهرير الى الاكواخ الملتحفة بالثلوج ، فتجلسون بجانب المواقد متأففين خائفين غضب الزوابع والعواصف ؟ هذه هي حياتكم ايها الفقراء. هذا هو الليل المخيم على أرواحكم أيها التعساء . هذه هي أشباح ذلكم وشقائكم أيها المساكين . هذا هو الصراخ الاليم المستمر الذي سمعته خارجاً من أعماق صدركم فاستيقظت وتمردت على الرهبان و كفرت بمعيشتهم ، ووقفت منفرداً متظلماً باسمكم واسم العدالة المتوجعة بأوجاعكم فحسبوني كافراً شريراً وطردوني من الدير فجئت لكي اشاطركم التعاسة واعيش بقربكم وامزج دموعي بدموعكم فاسلمتموني مكتوفاً الى عدوكم القوي الذي يغتصب

خيراتكم ويحيا غنياً باموالكم ويملأ جوفه الوسيع من اثمار اتعابكم... ألا يوجد بينكم شيوخ يعلمون بان الارض التي تحرثونها وتحرمون غلتها هي لكم وقد اغتصبها والد الشيخ عباس من آبائكم عندما كانت الشريعة مكتوبة على حد السيف ؟ أما سمعتم بان الرهبان قد احتالوا على جدودكم وامتلكوا مزارعهم وكرومهم عندما كانت آيات الدين مخطوطة على شفتي الكاهن ؟ ألا تعلمون بأن ممثلي الدين وابناء الشرف الموروث يتعاونون على اخضاعكم واذلالكم واستقطار دماء قلوبكم ؟ اي رجل منكم لم يلو عنقه كاهن الكنيسة أمام سيد الحقول ؟ واي امرأة بينكم لم يزجرها سيد الحقول ويستحثها لكي تتبع مشيئة كاهن الكنيسة ؟..

قد سمعتم بان الله قد قال للانسان الاول : بعرق جبينك تأكل خبزك . فلماذا يأكل الشيخ عباس خبزه مجبولاً بعرق جبينكم ويشرب خمره ممزوجاً بدموعكم ؟ هل ميز الله هذا الرجل وجعله سيداً اذ كان في رحم أمه ام غضب عليكم لذنوب مجهولة وبعثكم عبيداً الى هذه

الحياة لكي تجمعوا غلة الحقول ولا تأكلوا غير اشواك الاودية ، وتقيموا القصور الفخمة ولا تسكنوا غير الاكواخ المتداعية ؟.. قد سمعتم بأن يسوع الناصري قد قال لتلامذته : مجاناً اخذتم، مجاناً اعطوا .. لا تقتنوا فضة ولا ذهباً ولا نحاساً في مناطقكم . اذاً اي تعاليم اباحت للرهبان والكهان بيع صلواتهم وتعازيهم بالفضة والذهب ؟.. انتم تصلون في سكينة الليالي قائلين : اعطنا يا رب خبزنا كفاف يومنا . والرب قد وهبكم هذه الارض لتعطيكم الخبز والكفاف فهل وهب رؤساء الاديرة السلطة لانتزاع هذا الخبز من بين ايديكم ؟ انتم تلعنون يهوذا لانه باع سيده بالفضة فاي شيء يجعلكم ان تباركوا الذين يبيعونه في كل يوم من حياتهم ؟ ان يهوذا التعس قد ندم على خطيئته فشنق نفسه ، اما هؤلاء فيسيرون امامكم برؤوس مرفوعة واذيال طويلة ناعمة وقلائد ذهبية وخواتم ثمينة . انتم تعلمون ابناءكم محبة الناصري فكيف تعلمونهم الخضوع امام مبغضيه ومخالفي تعاليمه وشرائعه ؟ قد عرفتم بان رسل المسيح قد ماتوا قتلاً ورجماً لكي يحيوا فيكم الروح المقدسة

فهل تعرفون بان الرهبان والكهان يقتلون ارواحكم لكي يحيوا متمتعين بخيراتكم متلذذين بحرتقة قيودكم ؟ ماذا يغركم ايها المساكين في وجود مفعم بالذل والهوان ويبقيكم راكعين امام صنم مخيف اقامه الكذب والرياء على قبور آبائكم؟ واي كنز ثمين تحافظون عليه بخضوعكم لتبقوه ارثاً لابنائكم ؟

نفوسكم في قبضة الكاهن ، واجسادكم بين مخالب الحاكم ، وقلوبكم في ظلمة اليأس والاحزان . فأي شيء في الحياة يمكنكم ان تشيروا اليه قائلين : هذا لنا ؟ أتعرفون ايها المستسلمون الضعفاء من هو الكاهن الذي تهابونه وتقيمونه وصياً على اقدس اسرار نفوسكم ؟ اسمعوني فأبين لكم ما تشعرون انتم به وتخافون اظهاره.. هو خائن يعطيه المسيحيون كتاباً مقدساً فيجعله شبكة يصطاد بها اموالهم ، ومراء يقلده المؤمنون صليباً جميلاً فيمتشقه سيفاً سنيناً ويرفعه فوق رؤوسهم ، وظالم يسلمه الضعفاء اعناقهم فيربطها بالمقاود ويوثقها باللجم ويقبض عليها بيد من حديد ولا يتركها حتى تنسحق كالفخار وتتبدد

كالرماد .. هو ذئب كاسر يدخل الحظيرة فيظنه الراعي خروفاً وينام مطمئناً وعند مجيء الظلام يثب على النعاج ويخنقها نعجة اثر نعجة . هو نهم يحترم موائد الطعام اكثر من مذابح الهيكل ، وطامع يتبع الدينار الى مغاور الجن ويمتص دماء العباد مثلما تمتص رمال الصحراء قطرات المطر ، وبخيل يحرص على انفاسه ويذخر ما لا يحتاجه . هو محتال يدخل من شقوق الجدران ولا يخرج الا بسقوط البيت . ولص صخري القلب ينتزع الدرهم من الارملة والفلس من اليتيم . هو مخلوق عجيب له منقار النسر ومقابض النمر وانياب الضبع وملامس الافعى ، خذوا كتابه ومزقوا ثوبه وانتفوا لحيته وافعلوا به ما شئتم ثم عودوا وضعوا الدينار في كفه فيغفر لكم ويبتسم بمحبة . اصفعوا خده وابصقوا بوجهه ودوسوا عنقه ثم اجلسوه على موائدكم فيتناسى ويتهلل ويحل حزامه لينمو جوفه بمآكلكم ومشاربكم .. جدفوا على اسم ربه واقذفوا بعقائده واسخروا بايمانه ثم ابعثوا اليه بجرة من الخمر او بسلة من الفاكهة فيسامحكم ويبرركم امام الله والناس .

يرى المرأة فيحول وجهه قائلًا بأعلى صوته : ابتعدي عني يا ابنة بابل . ثم يهمس بسره قائلًا : الزيجة افضل من التحرق .. يرى الفتيان والصبايا سائرين في موكب الحب فيرفع عينيه نحو السماء ويهتف قائلًا : باطلة الاباطيل وكل شيء تحت الشمس باطل . ثم يختلي ويتنهد قائلًا : لتفن الشرائع وتضمحل التقاليد التي ابعدتني عن غبطة الحياة، وحرمتني ملذات العمر ... يقول للناس مستشهداً : لا تدينوا لئلا تدانوا . ولكنه يدين بقساوة جميع الذين يسخرون بمكارهه ويبعث بأرواحهم الى الجحيم قبل ان يبعدهم الموت عن هذه الحياة .. يحدثكم رافعاً عينيه بين الآونة والاخرى نحو العلاء أما فكرته فتظل منسابة كالافعى حول جيوبكم . يناديكم بقوله لكم : يا اولادي ويا ابنائي . وهو لا يشعر بالعاطفة الابوية ولا تبتسم شفتاه لرضيع ولا يحمل طفلًا على منكبيه . يقول لكم هازاً رأسه بتخشع : لنترفعن عن العالميات لان اعمارنا تضمحل كالضباب وايامنا تزول كالفيء . واذا نظرتم جيداً رأيتموه متمسكاً باذيال الحياة متشبثاً باهداب العمر ، متأسفاً

على ذهاب الامس ، خائفاً من سرعة اليوم ، مترقباً مجيء الغد .. يطلب منكم الاحسان وهو اوفر منكم مالا فان اجبتموه يبارككم علناً وان منعتموه يلعنكم سراً .. في الهيكل يوصيكم بالفقراء والمحتاجين وحول منزله يصرخ الجائعون وامام عينيه تمد ايدي البائسين فلا ينظر ولا يسمع ... يبيع صلاته ومن لا يشتري يكون كافراً بالله وانبيائه محروماً من الجنة والنعيم . هذا هو المخلوق الذي يخيفكم ايها المسيحيون . هذا هو الراهب الذي يمتص دماءكم ايها الفقراء . هذا هو الكاهن الذي يرسم اشارة الصليب بيمينه ويقبض على قلوبكم بشماله . هذا هو الاسقف الذي تقيمونه خادماً فينقلب سيداً ، وتطوبونه قديساً فيصير شيطاناً ، وترفعونه نائباً فيصبح نيراً ثقيلا . هذا هو الظل الذي يتبع ارواحكم منذ بلوغها هذا العالم حتى رجوعها الى الابدية . هذا هو الرجل الذي جاء في هذه الليلة لكي يدينني ويرذلني لان روحي تمردت على اعداء يسوع الناصري الذي احبكم ودعاكم اخوة له ثم صلب من اجلكم .

وتهلل وجه الشاب المكتوف وقد شعر باليقظة الروحية المتمايلة في صدور سامعيه واتضحت له تأثيرات كلامه في وجوه الناظرين اليه فرفع صوته وزاد قائلا : قد سمعتم أيها الاخوة بان الشيخ عباس قد أقامه الامير امين الشهابي سيداً على هذه القرية . وسمعتم ايضا بان الامير قد اقامه المليك حاكما على هذا الجبل . فهل سمعتم او رأيتم القوة التي اقامت المليك رباً على هذه البلاد ؟ انتم لا ترون تلك القوة متجسدة ولا تسمعونها متكلمة ولكنكم تشعرون بوجودها في أعماق أرواحكم ، وتسجدون امامها مصلين مبتهلين وتنادونها بقولكم : ابانا الذي في السموات . نعم ان أباكم السماوي هو الذي يقيم الملوك والامراء وهو القادر على كل شيء . ولكن هل تعتقدون بأن أباكم الذي احبكم وعلمكم سبل الحق بواسطة انبيائه يريد ان تكونوا مظلومين ومرذولين ؟ هل تعتقدون بان الله الذي ينزل السحاب مطراً ويستنبت البزور زرعا ، وينمي الزهور اثماراً ، يريد ان تكونوا جياعا محتقرين لكي يبقى واحد بينكم منتفخاً متلذذاً ؟ هل تعتقدون بان الروح السرمدي الذي يوحي اليكم

محبة الزوجة والرأفة بالبنين والشفقة على القريب يقيم عليكم سيداً قاسياً يظلمكم ويستعبد أيامكم ؟ هل تعتقدون بان النواميس الأزلية التي تحجب اليكم نور الحياة تبعث اليكم بمن يحجب اليكم ظلمة الموت ؟ هل تعتقدون بأن الطبيعة قد بعثت القوى في اجسادكم لكي تعود وتخضعها أمام الضعف؟ أنتم لا تعتقدون بهذه الاشياء لانكم اذا فعلتم تكونون كافرين بالعدل الالهي جاحدين نور الحق الذي يضيء على جميع الناس . اذاً أي شيء يجعلكم أن تساعدوا الشرير على نفوسكم ؟ ولماذا تخافون مشيئة الله الذي بعثكم احراراً الى هذا العالم وتصيرون عبيداً للمتمردين على ناموسه ؟ كيف ترفعون اعينكم نحو الله القوي وتدعونه أبا ثم تحنون رقابكم امام الانسان الضعيف وتدعونه سيداً ؟ كيف يرضى ابناء الله أن يكونوا عبيداً للبشر ؟ امادعاكم يسوع اخوة فكيف يدعوكم الشيخ عباس خدما ؟ اماجعلكم يسوع أحراراً بالروح والحق فكيف يجعلكم الأمير عبداً للحيف والفساد ؟ أما رفع يسوع رؤوسكم نحو السماء فكيف تخفضونها الى التراب ؟ أما سكب

يسوع النور في قلوبكم فكيف تغمرونها بالظلام ؟ . .
ان الله قدبعث ارواحكم في هذه الحياة كشعلات مضيئة
تنمو بالمعرفة وتزيد جمالا باستطلاعها خفايا الايام والليالي
فكيف تلحقونها بالرماد لتبيد وتنطفيء؟ ان الله قدوهب
نفوسكم اجنحة لتطير بها سابحة في فضاء الحب والحرية
فلماذا تجزونها بأيديكم وتدبون كالحشرات على اديم
الارض؟ ان الله قد وضع في قلوبكم بزور السعادة فكيف
تنتزعونها وتطرحونها على الصخر لتلتقطها الغربان وتذريها
الارياح ؟ ان الله قدرزقكم البنين والبنات لكي تدربوهم
على سبل الحق وتملأوا صدورهم باغاني الكيان وتتركوا
لهم غبطة الحياة ارثاً ثميناً فكيف تهجعون وتخلفونهم امواتاً
بين ايدي الدهر ، غرباء في ارض مولدهم ، تمساء امام
وجه الشمس ؟ أوليس الوالد الذي يترك ابنه الحر عبداً
يكون كالوالد الذي يسأله ابنه خبزاً فيعطيه حجراً ؟ ام
رأيتم عصافير الحقل تدرب فراخها على الطيران فكيف
تعلمون صغاركم جر القيود والسلاسل ؟ اما رأيتم زهور
الاودية تستودع بزورها حرارة الشمس فكيف تسلمون

اطفالكم الى الظلمة الباردة ؟

وسكت خليل هنيهة كأن افكاره وعواطفه قد نمت واتسعت فلم تعد ترتدي الالفاظ ثوباً ثم قال بصوت منخفض : ان الكلام الذي سمعتموه مني في هذه الليلة هو الكلام الذي طردني الرهبان من اجله ، والروح التي شعرتم بتموجاتها في قلوبكم هي الروح التي اوقفتني مكتوفاً امامكم ، فاذا وثب علي سيد حقولكم و كاهن كنيستكم وصرعاني اموت سعيداً فرحاً لاني باظهاري لكم حقيقة ما يحسبه الظالمون جرماً هائلاً قد تممت مشيئة بارئي وباريكم .

كان خليل يتكلم وفي صوته الجهوري نغمة سحرية يضطرب لها قلوب الرجال الناظرين اليه باعجاب يشابه استغراب الاعمى اذا ما ابصر فجأة وتهتز لحلاوتها نفوس النساء المحدقات به بأعين طافحة بالدموع . اما الشيخ عباس والخوري الياس فكانا يرتجفان غضباً ويتلويان كالمطروحين على وسائد من الاشواك . وقد حاول كل منهما ان يوقف الشاب عن الكلام فلم يستطع لانه كان يخاطب الجمع بقوة

علوية تشابه العاصفة بعزمها والنسيم برقتها

ولما انتهى خليل من كلامه وقد تراجع قليلًا الى الوراء ووقف بجانب راحيل ومريم حدث سكوت عميق كأن روحه المرفرفة في جوانب تلك القاعة الوسيعة قد حولت بصائر القرويين نحو مكان قصي وانتزعت الفكر والارادة من نفسي الشيخ والكاهن واوقفتهما مرتعشين امام اشباح ضميريهما المزعجة

حينئذ وقف الشيخ عباس وقد تقلصت ملامحه واصفر وجهه وانتهر الرجال الواقفين حوله قائلًا بصوت مخنوق : ما اصابكم ايها الكلاب ؟ هل تسممت قلوبكم وجمدت الحياة في داخل اجسادكم فلم تعودوا قادرين على تمزيق هذا الكافر المهذار .. هل اكتنفت روح هذا الشيطان ارواحكم وكبلت بسحره الجهنمي سواعدكم فلم تستطيعوا ابادته؟

قال هذه الكلمات وامتشق سيفاً كان بجانبه وهجم على الفتى المكتوف ليوقع به فتقدم رجل قوي البنية من بين الشعب واعترضه قائلًا بهدوء : اغمد سيفك يا سيدي لان من يأخذ بالسيف بالسيف يهلك .

فارتعش الشيخ عباس وسقط السيف من يده وصرخ قائلاً : هل يعترض الخادم الضعيف سيده وولي نعمته ؟

فاجابه الرجل : الخادم الامين لا يشارك سيده بالشرور والمظالم . ان هذا الشاب لم يقل غير الحق ولم يعلن لهؤلاء السامعين سوى الحقيقة .

وتقدم رجل آخر وقال : لم يقل هذا الفتى شيئاً يستوجب الحكم فلماذا تضطهده ؟

ورفعت امرأة صوتها وقالت : لم يقذف بالدين ولم يجدف على اسم الله فلماذا تدعوه كافراً ؟

فتشجعت راحيل اذ ذاك وتقدمت الى الامام وقالت : ان هذا الشاب يتكلم بألسنتنا ويتظلم عنا ومن يريد به شراً يكون عدواً لنا .

فقال الشيخ عباس صارفاً اسنانه : وانت تتمردين ايضاً ايتها الارملة الساقطة ؟ هل نسيت ما اصاب زوجك عندما تمرد علي منذ خمس سنوات ؟

فشهقت راحيل عندما سمعت هذه الكلمات وارتعشت متوجعة كمن ادرك سراً هائلا ، والتفتت نحو

الجمع وصرخت بأعلى صوتها : هل سمعتم القاتل يعترف بجريته في ساعة غضبه ؟ الاتذكرون ان زوجي قدوجد قتيلا في الحقل وقد بحثتم عن القاتل فلم تجدوه لأنه كان مختبئا وراء هذه الجدران ؟ ألا تذكرون ان زوجي كان رجلا شجاعا ؟ اماسمعتموه متكلما عن مكاره الشيخ عباس منددا بأعماله متمرداً على قساوته ؟ هاقد ابانت السماء قاتل جاركم واخيكم واوقفته امامكم فانظروا اليه واقرأوا جريته مكتوبة على وجهه المصفر . انظروه متململا جازعاً . تأملوا كيف قد ستر وجهه بيديه كيلا يرى عيونكم محدقة به . انظروا السيد القوي مرتجفاً كالقصبة المرضوضة . انظروا الجبار العظيم مرتاعاً امامكم كالعبد الخاطىء . ان الله قد اراكم على حين غفلة خفايا هذا القاتل الذي تخافونه وابان لكم النفس الشريرة التي جعلتني ارملة بين نسائكم وتركت ابنتي يتيمة بين ابنائكم .

وبينما راحيل تتكلم صارخة والفاظها تنقض كالصواعق على رأس الشيخ عباس وضجيج الرجال وزفرات النساء تتموج كشعلات النار والكبريت حول دماغه وقف

الكاهن واخذ بساعده واجلسه على المقعد ثم نادى الخدم بصوت مرتجف قائلا :

اقبضوا على هذه المرأة التي تتهم سيدكم زوراً وجروها مع هذا الشاب الكافر الى غرفة مظلمة ، ومن يعترضكم يكون شريكاً لهما بالجريمة محروماً نظيرهما من الكنيسة المقدسة .

فلم يتحرك الخدام من اماكنهم ولم يحفلوا باوامر الكاهن بل لبثوا جامدين محدقين بخليل المكتوف وراحيل ومريم الواقفتين عن يمينه وشماله كأنهما جناحان قدفتحا ليطير ويحلق بهما في السحاب

فقال الكاهن ولحيته تتراقص حنقاً : هل تكفرون بنعمة سيدكم ايها الاجلاف وتجحدون فضله وتنكرونه من اجل فتى مجرم كافر وامرأة عاهرة كاذبة ؟

فأجابه اكبر الخدام سناً وقال : قد خدمنا الشيخ عباس لقاء الخبز والمأوى ولكننا لم نكن له عبيداً قط . قال هذا ونزع عباءته وكوفيته وطرحهما امام الشيخ عباس وزاد قائلا : لا اريد ان انعم جسدي بهذه الملابس الحقيرة

كيما تبقى نفسي متعذبة في منزل سفاك الدماء .

ففعل الخدام كافة نظيره وانضموا الى الجمع وعلى وجوههم سيماء الانعتاق والحرية .

فلما رأى الخوري الياس مافعلوه وقد شعر بأن سلطته الكاذبة قد تضعضعت خرج من ذلك المنزل مجدفاً على الساعة التي اتت بخليل الى تلك القرية .

حينئذ تقدم رجل من بين الجمع وحل وثاق خليل ونظر الى الشيخ عباس المرتمي على كرسيه كجثة هامدة وبلهجة مملوءة بالعزم والارادة خاطبه قائلًا : ان الشاب الذي احضرته مكتوفاً لكي تحاكمه كمجرم اثيم قد انار قلوبنا المظلمة وحوّل بصائرنا نحو سبل الحق والمعرفة . والارملة البائسة التي دعوتها عاهرة كاذبة قد ابانت لنا السر الهائل الذي ظل مكتوماً خمسة اعوام . أما نحن فقد تراكضنا مسرعين الى هذه الدار بديونة البريء واضطهاد العادل . والآن وقد انفتحت اعيننا وأرتنا السماء جريمتك المخيفة ومظالمك القاسية نغادرك منفرداً ولا ندينك ونهملك ولا نشكوك ونبتعد عنك طالبين من السماء ان تفعل مشيئتها بك .

وارتفعت اذ ذاك أصوات الرجال والنساء في تلك القاعة الوسيعة فكان هذا يقول : هلموا نخرج من هذا المكان المشحون بالآثام والمعاصي ونذهب الى بيوتنا . وذا يصرخ : تعالوا نتبع الشاب الى بيت راحيل ونسمع حكمته المعزية وأقواله العذبة . وذاك يهتف : لنفعلن ارادة خليل فهو أعلم بحاجاتنا وادرى منا بمطالبنا . وغيره يقول : ان كنا نريد العدل والانصاف فلنذهب غداً الى الامير أمين ونخبره بجرائم الشيخ عباس ونطلب اليه ان يعاقبه . وآخر يصيح : يجب ان نستعطف الامير ونرجوه ان يقيم خليلاً ممثلاً له في هذه القرية . وغيره يقول : يجب ان نشكو الخوري الياس الى الاسقف لأنه يشارك الشيخ بجميع اعماله .

وبينما هذه الاصوات تتصاعد من كل ناحية وتهبط كالسهام الحادة على صدر الشيخ الخفوق رفع خليل يده واسكت الجمع باشارة ثم ناداهم قائلاً: اسمعوا وتبصروا ايها الاخوة ولا تكونوا متسرعين . أنا اطلب اليكم باسم محبتي ألا تذهبوا الى الامير فهو لا ينصفكم من الشيخ لان الكواسر لا تنهش بعضها البعض . ولا تشكوا الكاهن الى رئيسه لان الرئيس يعلم ان البيت الذي ينقسم على ذاته يخرب ، ولا تطلبوا ان اكون ممثلاً للحاكم في هذه القرية لان الخادم الامين لا يريد ان يكون عوناً للسيد الشرير . ان كنت خليقاً بحبكم وانعطافكم دعوني اعيش بينكم واشاركم بافراح الحياة واحزانها ، واشاطركم العمل في الحقول والراحة في المنازل لانني ان لم أكن كواحد منكم أكن كالمرائين الذين يكرزون

بالفضيلة ولا يفعلون غير الشر . والآن وقد وضعت الفأس على أصل الشجرة تعالوا نذهب تاركين الشيخ عباس واقفاً في محكمة ضميره أمام عرش الله الذي يشرق شمسه على الابرار والاشرار .

قال هذا وخرج من ذلك المكان فتبعه الجمع كأن في شخصه قوة تتحول نحوها الابصار كيفما تحولت . وبقي الشيخ منفرداً كالبرج المهدوم متوجعاً كالقائد المغلوب . ولما بلغ الجمع ساحة الكنيسة وكان القمر قد طلع من وراء الشفق وسكب اشعته الفضية في السماء التفت خليل ورأى أوجه الرجال والنساء متجهة نحوه كالخراف الناظرة الى راعيها فتحركت روحه في داخله كأنه وجد في اولئك القرويين المساكين رمز الشعوب المظلومة وشاهد في تلك الاكواخ الحقيرة المكتنفة بالثلوج المتجلدة رمز البلاد المغمورة بالذل والهوان ، فوقف وقفة نبي يسمع صراخ الاجيال، وتغيرت ملامحه واتسعت عيناه كأن نفسه قد ابصرت جميع امم المشرق سائرة تجر قيود العبودية في تلك الاودية ، فرفع كفيه نحو العلاء وبصوت يشابه ضجيج الامواج صرخ قائلا :

من اعماق هذه الاعماق نناديك ايتهــا الحرية فاسمعينا . من جوانب هذه الظلمة نرفع اكفنا نحوك فانظرينا . وعلى هذه الثلوج نسجد امامك فارحمينا . امام عرشك الرهيب نقف الآن ناشرين على اجسادنا اثواب آبائنا الملطخة بدمائهم ، عافرين شعورنا بتراب القبور الممزوج ببقاياهم ، حاملين السيوف التي اغمدت باكبادهم ، رافعين الرماح التي خرقت صدورهم ، ساحبين القيود التي ابادت

اقدامهم ، صارخين الصراخ الذي جرح حناجرهم ، نائحين النواح الذي ملأ ظلمة سجونهم ، مصلين الصلاة التي انبثقت من اوجاع قلوبهم ، فاصغي ايتها الحرية واسمعينا .. من منبع النيل الى مصب الفرات يتصاعد نحوك عويل النفوس متموجاً مع صراخ الهاوية ، ومن أطراف الجزيرة الى جبهة لبنان تمتد اليك الايدي مرتعشة بنزاع الموت ، ومن شاطىء الخليج الى اذيال الصحراء ترتفع نحوك الاعين مغمورة بذوبان الافئدة ، فالتفتي ايتها الحرية وانظرينا . في زوايا الاكواخ القائمة في ظلال الفقر والهوان تقرع امامك الصدور ، وفي خلايا البيوت الجالسة في ظلمة الجهل والغباوة تطرح لديك القلوب ، وفي قراني المنازل المحجوبة بضباب الجور والاستبداد تحن اليك الارواح ،فانظري ايتها الحرية وارحمينا ...في المدارس والمكاتب تناجيك الشبيبة اليائسة ، وفي الكنائس والجوامع يستميلك الكتاب المتروك ، وفي المحاكم والمجالس تستغيث بك الشريعة المهملة ، فاشفقي ايتها الحرية وخلصينا ... في شوارعنا الضيقة يبيع التاجر ايامه ليعطي اثمانها للصوص المغرب ، ولا من ينصحه ، وفي حقولنا المجدبة يحفر الفلاح الارض باظافره ، ويزرعها حبات قلبه ، ويسقيها دموعه ، ولا يستغل غير الاشواك ولا من يعلمه . وفي سهولنا الجرداء يسير البدوي عارياً حافياً جائعاً ولا من يترأف عليه ، فتكلمي ايتها الحرية وعلمينا

نعاجنا ترعى الاشواك والحسك بدلا من الزهور والاعشاب ، وعجولنا تقضم اصول الاشجار بدلا من الذرة ، وخيولنا تلتهم

الهشيم بدلا من الشعير ،فهلمي ايتها الحرية وانقذينا ·

منذ البدء وظلام الليل يخيم على ارواحنا فمتى يجيء الفجر؟ من الحبوس الى الحبوس تنتقل اجسادنا والاجيال تمر بنا ساخرة فالى متى نحتمل سخرية الاجيال ؟ ومن نير ثقيل الى نير اثقل تذهب اعناقنا وامم الارض تنظر من بعيد ضاحكة منا فالا م نصبر على ضحك الامم؟ ومن القيود الى القيود تسير ركابنا ، فلا القيود تفنى ولا نحن ننقرض فالى متى نحيا ؟

من عبودية المصريين الى سبي بابل الى قساوة الفرس الى خدمة الاغريقيين الى استبداد الروم الى مظالم المغول الى مطامع الافرنج فالى اين نحن سائرون الآن ، ومتى نبلغ جبهة العقبة ؟

من مقابض فرعون الى مخالب نبوختنصر الى اظافر الاسكندر الى اسياف هيرودس الى براثن نيرون الى انياب الشيطان فالى يد من نحن ذاهبون الآن ومتى نبلغ قبضة الموت فنرتاح من سكينة العدم ؟

بعزم سواعدنا قد رفعوا اعمدة الهياكل والمعابد لمجد آلهتهم ، وعلى ظهورنا قد نقلوا الطين والحجارة لبناء الاسوار والبروج لتعزيز حماهم ، وبقوى اجسادنا قد اقاموا الاهرام لتخليد اسمائهم ، فحتى متى نبني القصور والصروح ولا نسكن غير الاكواخ والكهوف ، ونملأ الاهراء والخزائن ولا نأكل غير الثوم والكراث ، ونحوك الحرير والصوف ولا نلبس غير المسوح والاطمار ؟

بخبثهم واحتيالهم قد فرقوا بين العشيرة والعشيرة وابعدوا الطائفة عن الطائفة ، وبغضوا القبيلة بالقبيلة ، فحتى متى نتبدد

كالرماد امام هذه الزوبعة القاسية ، ونتصارع كالاشبال الجائعة بقرب هذه الجيفة المنتنة ؟

لحفظ عروشهم وطمأنينة قلوبهم قد سلحوا الدرزي لمقاتلة العربي وحمسوا الشيعي لمصارعة السني ونشطوا الكردي لذبح البدوي وشجعوا الاحمدي لمنازعة المسيحي . فحتى متى يصرع الاخ اخاه على صدر الام والى متى يتوعد الجار جاره بجانب قبر الحبيبة والام يتباعد الصليب عن الهلال امام عين الله ؟

اصغي ايتها الحرية واسمعينا ، التفتي يا ام ساكني الارض وانظرينا فنحن لسنا ابناء ضرتك ، تكلمي بلسان فرد واحد منا ، فمن شرارة واحدة يشتعل القش اليابس . أيقظي بحفيف اجنحتك روح رجل من رجالنا ، فمن سحابة واحدة ينبثق البرق وينير بلحظة خلايا الاودية وقمم الجبال . بددي بعزمك هذه الغيوم السوداء وانزلي كالصاعقة واهدمي كالمنجنيق قوائم العروش المرفوعة على العظام والجماجم المصفحة بذهب الجزية والرشوة ، المغمورة بالدماء والدموع .

اسمعينا ايتها الحرية ، ارحمينا يا ابنة اثينا ، انقذينا يا اخت رومة ، خلصينا يا رفيقة موسى ، اسعفينا يا حبيبة محمد ، علمينا يا عروسة يسوع ، قوي قلوبنا لنحيا او شددي سواعد اعدائنا علينا فنفنى وننقرض ونرتاح .

كان خليل يناجي السماء وعيون الفلاحين محدقة به ، وعواطفهم تنسكب مع نغمة صوته ، ونفوسهم تتطاير مع انفاسه ، وصدورهم تخفق بنبضات قلبه ، فكأنه اصبح منهم في تلك الساعة بمنزلة الروح

من الجسد . ولما انتهى من مناجاته التفت نحوهم وقال بهدوء : قد جمعنا هذا الليل في منزل الشيخ عباس لكي نرى نور النهار ، واوقفتنا المظالم امام هذا الفضاء البارد لكي نتفاهم وننضم كالفراخ تحت جناحي الروح الخالدة . فليذهب الآن كل منا الى فراشه لينام مترقباً لقاء اخيه في الصباح .

قال هذا ومشى متبعاً خطوات راحيل ومريم الى كوخها . فتفرق اذ ذاك الجمع وذهب كل الى بيته مفكراً بما سمعه ورآه شاعراً بملامس حياة جديدة في داخل نفسه

ولم تمر ساعة حتى انطفأت السرج في الاكواخ والقت السكينة وشاحها على تلك القرية وحملت الاحلام ارواح الفلاحين تاركة روح الشيخ عباس ساهرة مع اشباح الليل مرتعدة امام ذنوبه متعذبة بين انياب هواجسه

٨

مرّ شهران وخليل يسكب سرائر روحه في قلوب اولئك القرويين محدثاً اياهم في كل يوم عن غوامض حقوقهم وواجباتهم ، مصوراً لبصائرهم حياة الرهبان الطامعين ، مردداً على مسامعهم أخبار الحكام القساة ، جاعلاً بين عواطفه وعواطفهم صلة قوية شبيهة بالنواميس الازلية التي تقيد الاجرام بعضها ببعض ، فكانوا يصغون اليه بفرح يضارع بهجة الحقول الظمآنة بانهطال الامطار . ويرددون كلامه في خلوتهم ملبسين نسمات مقاصده اجساداً من محبتهم غير

حافلين بالخوري الياس الذي أصبح يتزلف اليهم منذ ظهور جريمة حليفه الشيخ، ويقترب منهم ليناً كالشمع بعد ان كان صلباً كالرخام

اما الشيخ عباس فقد أصيب بعلة في نفسه شبيهة بالجنون ، فكان يسير ذهاباً واياباً في رواق منزله كالنمر المسجون ، وينادي خدامه بأعلى صوته فلا يجيبه غير الجدران ،ويصرخ مستنجداً برجاله فلا يأتي لمعونته غير زوجته المسكينة التي عانت من خشونة طباعه ما قاساه الفلاحون من مظالمه واستبداده . ولما جاءت ايام الصوم واعلنت السماء قدوم الربيع انقضت ايام الشيخ بانقضاء زوابع الشتاء فمات بعد نزاع موجع مخيف ، وذهبت روحه محمولة على بساط أعماله لتقف عارية أمام ذلك العرش الذي نشعر بوجوده ولا نراه ، وقد اختلفت آراء الفلاحين في سبب موته ، فكان بعضهم يقول قد اختل شعوره فقضى مجنوناً وبعضهم يقول قد سمم اليأس حياته عندما زالت سطوته فمات منتحراً. اما النساء اللواتي ذهبن لتعزية زوجته فأخبرن رجالهن بأنه مات خائفاً مرتاعاً، لأن شبح سمعان الرامي كان يظهر له مرتدياً أثواباً ملطخة بالدماء ويقوده كرهاً عندما ينتصف الليل الى المكان الذي وجد فيه مصروعاً منذ خمسة أعوام.

•••

واعلنت أيام نيسان لسكان تلك القرية سرائر الحب الخفية الكائنة بين روح خليل وروح مريم ابنة راحيل فتهللت وجوههم فرحاً، ورقصت قلوبهم ابتهاجاً، ولم يعودوا يخشون ذهاب الشاب الذي ايقظ قلوبهم الى محيط أوسع وأرقى من وسطهم فطافوا يبشرون

بعضهم بعضاً بصيرورته جاراً قريباً وصهراً محبوباً لكل واحد منهم.

ولما جاءت ايام الحصاد خرج الفلاحون الى الحقول وجمعوا الاغمار على البيادر ولم يكن الشيخ عباس هناك ليغتصب الغلة ويحملها الى اهرائه ومخازنه بل كان كل من الفلاحين يستغل الحقل الذي فلحه وزرعه فامتلأت تلك الاكواخ من القمح والذرة والخمر والزيت.

أما خليل فكان يشاطرهم الاتعاب والمسرات ويساعدهم بجمع الغلة وعصر العنب واجتناء الاثمار. ولم يكن يميز نفسه عن الواحد منهم إلا بمحبته ونشاطه.

منذ تلك السنة الى ايامنا هذه اصبح كل فلاح في تلك القرية يستغل بالفرح الحقل الذي زرعه بالاتعاب، ويجمع بالمسرة ثمار البستان الذي غرسه بالمشقة، فصارت الارض ملكا لمن يفلحها، والكروم نصيباً لمن ينقبها ويحرثها

والان وقد انقضى نصف قرن على هذه الحادثة، وراودت اليقظة اجفان اللبنانيين، يمر المسافر على طريقه الى غابة الارز ويقف متأملاً بمحاسن تلك القرية الجالسة كالعروس على كتف الوادي فيرى اكواخها قد صارت بيوتاً جميلة مكتنفة بالحقول الخصبة والحدائق الناضرة، وان سأل احد سكانها عن تاريخ الشيخ عباس يجبه مشيراً نحو حجارة متقوضة وجدران مهدومة مرتمية قائلاً: هذا قصر الشيخ عباس وهذا هو تاريخ حياته. وان سأله عن خليل يرفع يده الى العلاء قائلا: هناك يسكن خليلنا الصالح، أما تاريخ حياته فقد كتبه آباؤنا بأحرف من شعاع على صفحات قلوبنا فلن تمحوه الأيام والليالي....


Bibliotheca Alexandrina
0411510